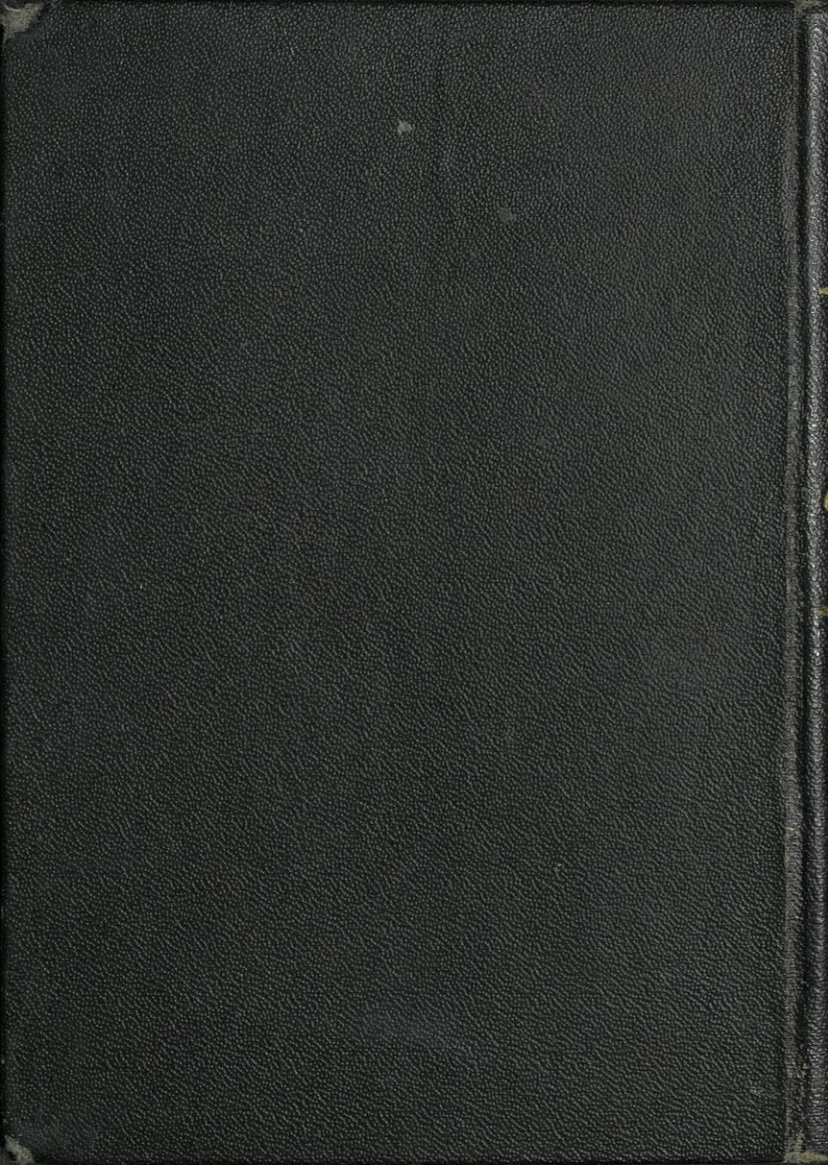
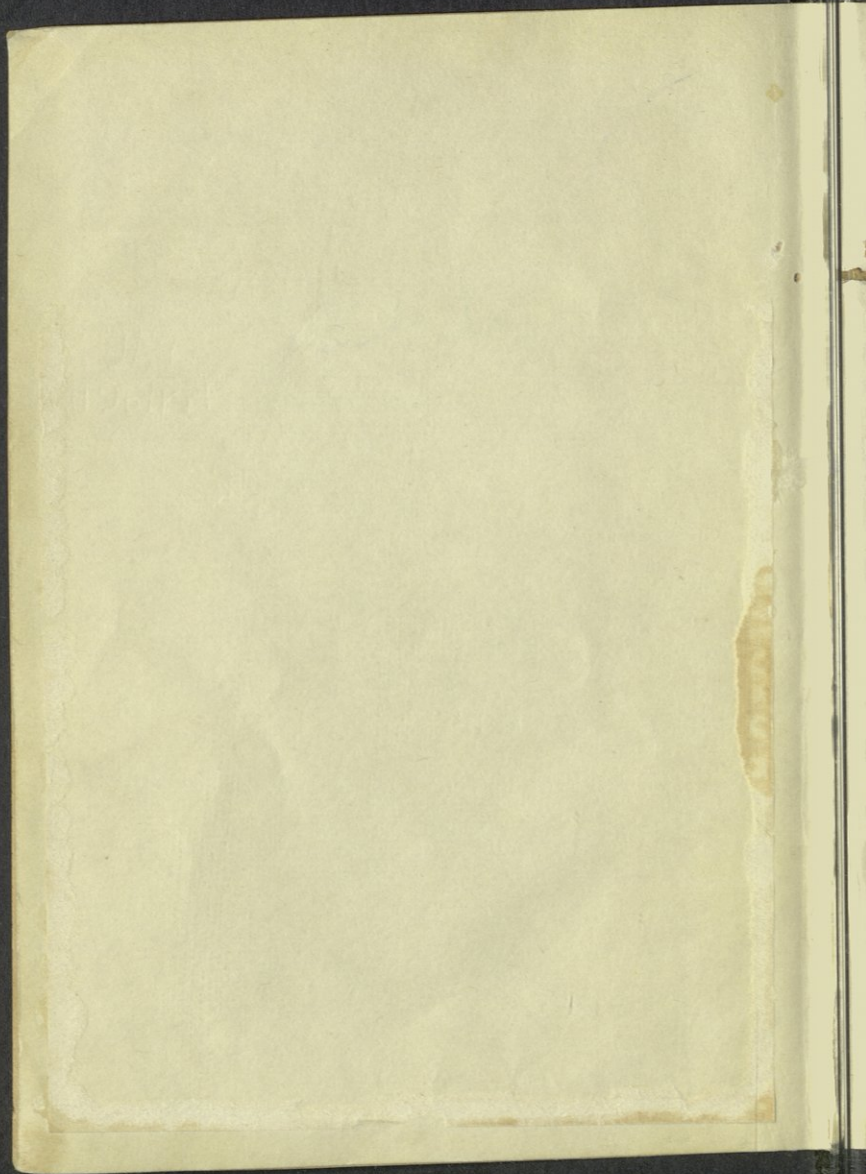
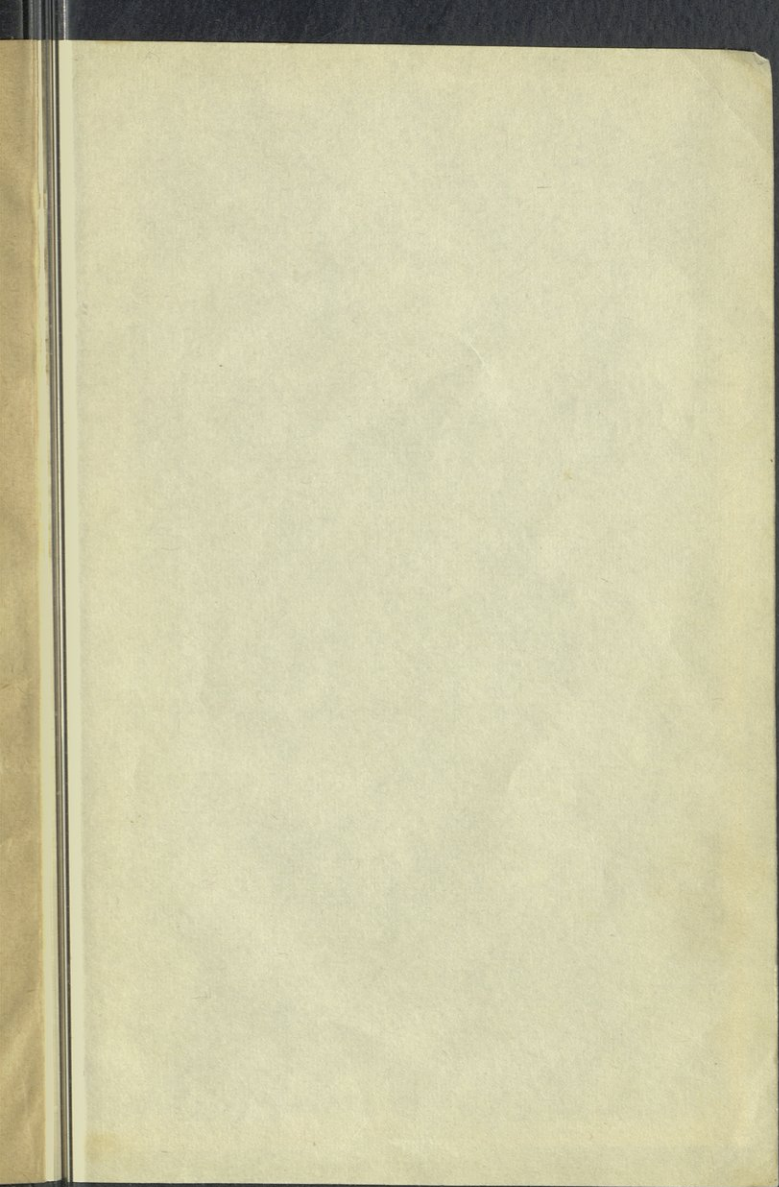


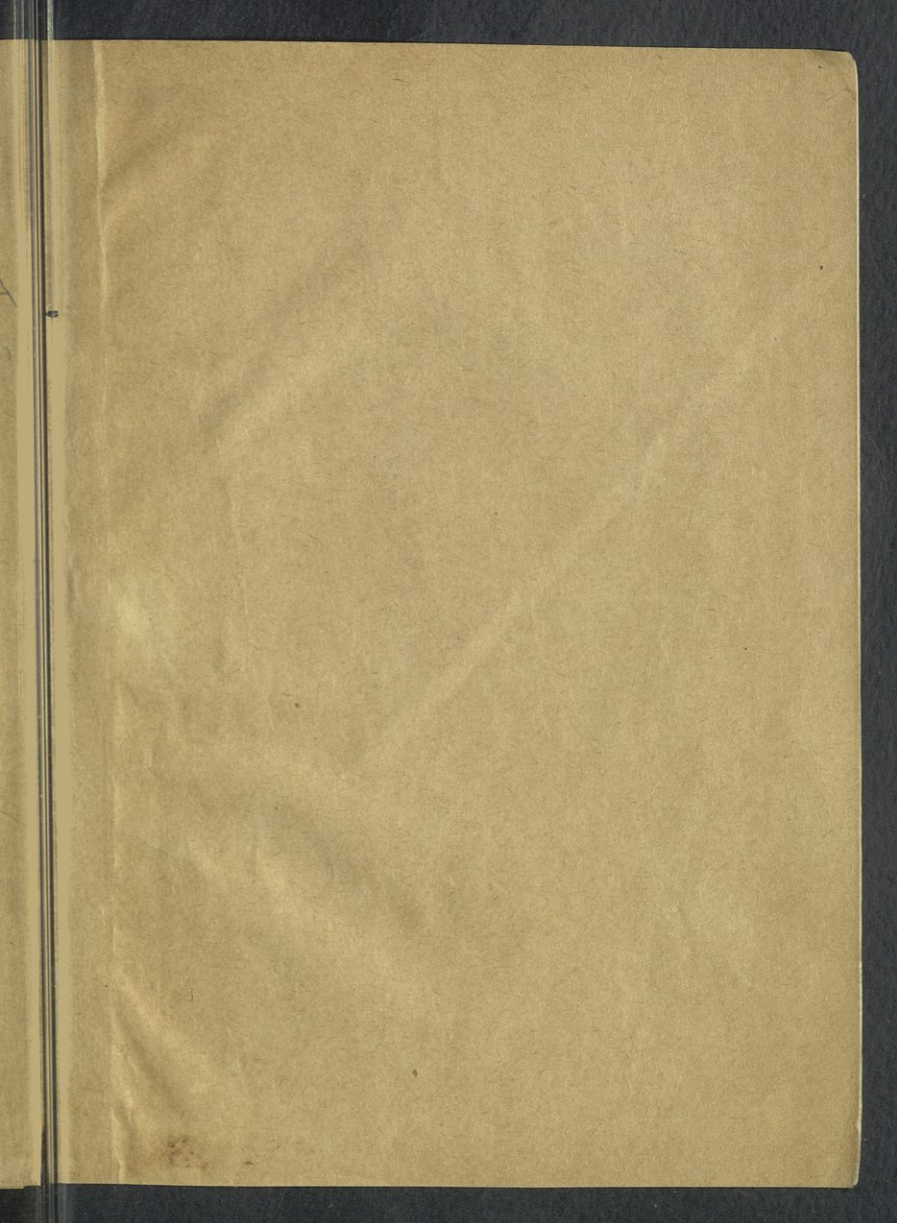


م. ج. آ. ن. ی. ک





رحلة الزبيج



114
H 76.1.11
طه حسين

892.73

Hq3924rA

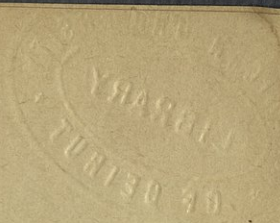
رحلة الربيع

٦٩

اقرأ

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقراً ٦٩ — أغسطس سنة ١٩٤٨



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

رحلة الربيع والصيف

وقفت السيارة عند أصل القلعة ، وفي الوقت نفسه أقلعت السماء ، وسكت الغيث ، وأقبلت أشعة هادئة فاترة تنبيء السحاب في رفق عذب بأن الشمس تريد أن تزور مشرق الحكمة ، فينقشع السحاب خفيفاً رشيقياً ، وتقبل الشمس في أناة ووقار وجلال فتغمر القلعة بنورها كأنما تضمها إليها في حب وحنان . ونصعد نحن في أثناء ذلك وقد استحضرنّا عقلاً كله وحسناً كله وشعورنا كله فقطعنا كل ما كان بيننا وبين العالم من صلة وأخلصنا نفوسنا للقلعة نريد أن نلتهمها حباً لها وإعجاباً بها وفناء فيها .

وقضينا في القلعة ساعتين عشنا فيهما ثلاثة قرون كاملة ، فاعجب إن شئت لثلاث مائة سنة تختصر في ساعتين ؛ فهذه خصلة خص بها الإنسان تتيح له أن يختصر الزمان إن شاء أن يختصره ، وأن يتجاوز الزمان إن أراد أن يتجاوزه ، وأن

يخلص للماضى أو لقطعة من الماضى إن أحب أن يخلص لها، وأن يمضى فى المستقبل إلى غير غاية وعلى غير هدى، وأن يقف فى الحاضر لا يعدوه إلى أمام ولا إلى وراء، وأن يجمع إن شاء بين هذا كله فيفرق نفسه تفريقاً. وقد تركنا المستقبل لمن بيده المستقبل، وتركنا الحاضر للذين يشغلون بالحاضر، وألغينا من الماضى ثلاثة وعشرين قرناً، وأهملنا من الماضى قروناً أخرى لا تحصى سبقت هذا العصر الذى اخترناه ووقفنا عليه هاتين الساعتين. وألغينا من آماند المكان مثل ما ألغينا من آماند الزمان، فتركنا الأرض القرية والبعيدة. وتركنا البحر والمحيط، وتركنا الجوال الذى يغمر البر والبحر، ووقفنا عقلنا وشعورنا وحسنا على هذه القطعة الصغيرة من الأرض فى هذه القطعة الصغيرة من الدهر. وجعلنا نسعى مبطين متفهمين، ونقف متأملين متفكرين بين هذه الأطلال اليونانية لا نعرف غيرها ولا تكاد هى تعرف غيرنا؛ فقد سبقنا إليها أهل السفينة جميعاً وبلغناها قبل أن يبلغها أحد فخلونا إليها وختل إلينا، وقلنا لها وقالت لنا، ومألنا منها قلوبنا وانصرفنا عنها وقد ملأت علينا آفاق الأرض والسماء؛ فذكرناها وسندكرها ما امتدت لنا أسباب الحياة، ونسيتها هى

وستنسنا كما نسيت أجيالا كثيرة وكما ستنسى أجيالا كثيرة
 ما امتدت لها أسباب البقاء . وكان الذين يكتنفونى من الأهل
 والرفاق يسعون من حولى ، وقد أخذت أبصارهم وسحرت عقولهم
 واستهويت قلوبهم ، وجعلت أفواههم وألسنتهم تنقل إلى بعض
 ما يجدون بهذه الآهات الطويلة المتصلة وهذه الألفاظ القليلة
 المتقطعة التى ينطق بها المبهورون المسحورون حين يأخذ الإعجاب
 عليهم طريق الإبانة والإفصاح . وكنت أسمع لهم بإحدى أذنى
 أو بجزء يسير من إحدى أذنى ، أعرض عنهم بعقلى كله وقابى
 كله وضميرى كله . أتركهم لما يرون وأفترغ لما أجد ، وما أكثر
 ما كنت أجد ! وما أشد اختلاف ما كنت أجد ! فليس بالقليل
 على الإنسان المحدود أن يعيش فى هذه القرون الثلاثة ، فيشهد
 نشأة العقل ونمو الفن وحياة الشعور ويقظة الضمير ، ويرى
 طريق الحضارة والرقى ترسم للأجيال وتقام فيها الأعلام تدفع
 إليها الإنسانية دفعا ، ويقال لها هذه هى الطريق التى ستسلكونها
 راضية أو كارهة راغبة أو راهبة لا تخرجين منها ولا تتحولين
 عنها مهما تلقى فيها من الخير والشر ومهما يعترضك فيها من
 النعيم والبؤس ؛ حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وحتى تطوى

السماء كطى السجل للكتاب .

ففي هذه القرون الثلاثة وفي هذه القطعة الضيقة من الأرض التي يحيط بها الطرف في أيسر الجهد ويطوف بها الإنسان في أقصر الوقت ، عرف الإنسان أن له عقلاً وشعوراً وضميراً . وأن له من أجل ذلك حقاً في أن يكون حراً كريماً . وأن عليه من أجل ذلك واجباً أن يرعى لنظرائه حقهم في الحرية والكرامة والامتناع على الضيم .

في هذه القرون الثلاثة من الدهر وفي هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، نشأت الديمقراطية ، فعرف الإنسان أن سلطان الحاكم لا يتنزل من السماء وإنما يخرج من الأرض . وأن بين الحاكم والمحكوم عقداً اجتماعياً تصدره القوانين المكتوبة والدساتير التي تنقش في القلوب . أولاً ثم تكتب في الصحف بعد ذلك .

وعرفت الإنسانية أن الناس سواء أمام القانون لا يمتاز منهم فرد من فرد ولا تتفوق منهم طبقة على طبقة ، ولا يتفاوتون فيما بينهم إلا بالعمل الصالح والبلاء الحسن ، واستطاع سولون أن يتغنى في شعره الرائع بأنه حرر الأرض فلم تصبح وقفاً على فريق من الناس دون فريق .

في هذه القرون الثلاثة من الدهر وفي هذه الرقعة الضيقة من الأرض نظمت القوانين ما يكون من الصلات بين الحاكمين والمحكومين ، وادت القوانين إلى الشعب أمور الشعب . وجعلت القوانين حكام الشعب خداماً للشعب ، وفرضت القوانين على حكام الشعب أن يؤدوا إلى الشعب حساباً دقيقاً عما نهضوا به من المناصب ، وما استقلوا به من الأعباء . وما قاموا به من الأعمال .

في هذه القرون الثلاثة من الدهر ، وفي هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، نما الفن الرائع ، وزها الشعر البارع ، وأزهر الأدب الرفيع ، وطوف سقراط بفلسفته في الشوارع والأزقة ، يعلم الناس وهو يحاورهم أن عليهم أن يعرفوا أنفسهم وأن يتقفوها وأن يهذبوها وأن يرفعوها من الصفو والعفو إلى حيث تظهر من دنس المنافع الوضيعة وتبرأ من أضرار الحياة الخسيسة وتعيش في جو من الفضيلة لا تجد الرذيلة إليه سبيلاً . ويعلم الناس وهو يحاورهم أن للإنسان ضميراً حراً ليس لأحد سلطان عليه ولا ينبغي أن يكون موضوعاً للمساومة ولا سلعة تعرض للتجارة ، وأن حرية الضمير وحرية التفكير وحرية التعبير هي التي تجعل

الإنسان إنساناً ، فلما امتحن سقراط في فلسفته هذه صبر
 للمحنة وثبت للفتنة ، وعلم تلاميذه وهو يحاورهم كيف يستقبل
 الإنسان الحر إمام الخطب حين يلم ، وزيارة الموت حين يزور
 مبتسماً للخطب لأنه زائل ، وساخرًا من الموت لأنه عارض من
 ورائه الخلود . وفي هذا الوقت نفسه كان سوفوكل بنطق
 أنتيجونا في ملعب التمثيل بأن هناك قوانين خالدة وجدت قبل
 الإنسان وستوجد بعد الإنسان وهي قوام الخلق وملاك العقل ؛
 فليس لأحد عليها سلطان وليس للمخلوق على الناس طاعة إن
 خالف عن هذه القوانين .

نعم ! في هذه القرون الثلاثة من الدهر وفي هذه الرقعة الضيقة
 من الأرض ، عرف الإنسان عقله وقلبه وضميره ، ورسمت له
 فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس مناهج التفكير
 والشعور والسيرة ، وشقت له طريق الرقي ، وعلمته الطموح إلى
 الكمال والارتفاع عن النقص والتزهر عما يشين .

في هذا كله وفي أكثر من هذا كله كنت أفكر ونحن نسعى
 في هذه الأطلال اليونانية مستحضراً تلك الحقبة من الدهر متمثلاً
 ما كان فيها من خير كثير وشر كثير ، وما كان فيها من صراع

بين الحق والباطل ، وما كان فيها من اختصاص بين العدل والجور ،
 وما كان فيها من جهاد بين الرفعة والضعفة ، وما كان فيها من
 ثورة على باطل الحياة وزخرفها ومن سمو إلى المثل العليا .
 وكنت أسمع خطباء الأتنيين ينافح بعضهم عن الحق نا صحاً ويموه
 بعضهم على الجماهير مضللاً . وكنت أشهد ملاعب التمثيل وأرى
 أصحاب المأساة يرفعون الإنسان إلى صف الآلهة وأصحاب الملهاة
 يضعون الإنسان إلى منزلة الحيوان . وكنت أسمع حوار سقراط
 وأرقى مع أفلاطون إلى ملئه الأعلى ، وأعود مع أرسطاطاليس إلى
 بحته المتواضع الرفيع ، وأشهد الأحداث الكبرى تحدث بعيداً
 عن أتيننا وتحدث قريباً من أتيننا وتحدث في قلب أتيننا ، وأرى
 جماعة الشعب تحاور في هذا كله وتقضي في هذا كله تصيب
 حيناً وتخطئ أحياناً ، ولكنها مستمسكة دائماً بحقها في السيادة
 والسلطان والاستشار بتدبير أمرها من دون الطغاة . وكنت قد
 تركت في مصر شراً ونكراً وإثماً ، وخرجت وفي نفسي شيء
 من شرها ونكرها وإثمها ، فلما بلغت أصل القلعة وجعلت أرقى
 فيها قليلاً قليلاً ، وأتنفس من هوائها ذلك العذب ، وأتنسم من
 عبيرها ذلك الأرج وأعيش في تاريخها ذلك الرائع ، أحسست

كأن ما علق بنفسى من الشر والنكر والإثم قد جعل يزول عنها
 شيئاً فشيئاً . وكأن نفسى قد جعلت تتخفف من عبء باهظ
 وثقل ثقیل . حتى إذا بلغت البارتنون وجدتني خفيف النفس
 نظيف القلب صحيح العقل نقي الضمير ، وإذا أنا أدعو إلى شعراء
 المأساة والملهاة ، وأدعو إلى رواة القصص وكتاب التاريخ ، وأدعو
 إلى سقراط ومحاوريه وأفلاطون ومناظريه وأرسطاطاليس وتلاميذه ،
 وأبرأ إليهم جميعاً من الشر والنكر والإثم وأشهدهم جميعاً على أنى
 قد وفيت لمثلهم العليا . فلم أنقض عهداً . ولم أضع ودّاً . ولم أخن
 صديقاً . ولم أغدر خليلاً ، ولم أشتري الراحة والدعة واللين بثمن
 بنحس دراهم ودنانير تعد أو لا تعد . وإذا أنا أعاهدكم على
 أنى سأنفق ما بقى لى من الحياة كما أنفقت ما مضى عنى من
 الحياة وفيّاً للحق حفيّاً بالفضيلة مترفعاً عما ينحس الرجل ويزرى
 بالمرءة ، متبرئاً من خيانة الأصدقاء والغدر بالأخلاء وبيع
 الضمير بالمال القليل أو الكثير .

وأنا فى ذلك وإذا زوجى تهتف بى : أين أنت ! ألا تسمع
 لما يقال من حولك ؟ فأعود إليها مترفقاً مبتسماً . وأعتذر إليها فى
 سداجة بأنى كنت أعيش فى القرن الخامس والرابع قبل المسيح .

قالت وتضاحكت وتضاحك من حولنا : فعد إلى القرن العشرين
بعد المسيح ، واهبط معنا إلى حيث يعيش الناس في المدينة الحية ؛
فقد يخيل إلى أنك أنسيت قهوة الضحى .

٢

ونهبط متمهلين مترفين نسعى قليلا لنقف كثيراً ، والرفاق
 من حولي يمدون أبصارهم إلى هذه الناحية أو تلك ليروا هذا
 المشهد أو ذاك من مشاهد الحكمة والفلسفة والأدب والقرن
 والتاريخ . يمدون أبصارهم في هذه الناحية ليروا قمة البارناس ،
 ويمدون أبصارهم في تلك الناحية ليروا صخرة سلاميس . فعلى
 قلعة البارناس تجلت روعة أبولون فملأت الأرض جمالا ونورا .
 وعند صخرة سلاميس تحطم أسطول الملك الأعظم فانتصرت
 قوة العقل على قوة الملك وسعة السلطان . ولا يكاد الرفاق يردون
 أبصارهم بعد أن مدوها حتى تقف بها الطريق فتتعلق بهذا
 الأثر أو ذاك من هذه الآثار القزبية التي وقفوا عندها فأطالوا
 الوقوف ولكنهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنها ، قد علقبت بها
 نفوسهم فلا يستطيعون لها استخلاصاً إلا في كثير من الجهد
 الشاق العنيف كأنها قطع الحرير قد علقبت بالشوك ، فلا بد

من الحيلة الدقيقة الرفيقة لاستخلاصها منه دون أن يلحقها البلى .
 وربما انحنى الرفاق فجاءة إلى الأرض لا يحاولون ركوعاً ولا
 سجوداً ، وإنما دعهم هذه الزهرات النضرات من زهر العشب الذى
 ينبت فى أعقاب الغيث بين ما تشقق من الصخور . وأنا
 بين الرفاق ساهم واجم أسعى متعثراً وأقف حيران وجلا أود لو
 طال الوقوف فأتزود من عبير عرار نجد ، فما بعد هذا الضحى
 من عرار . وأتغنى فى نفسى سسينية البحرى :

صنت نفسى عما يدنس نفسى

وترفعت عن جدا كل جبس

ولكنى أضع « يونان » مكان « ساسان » وتتغنى نفسى الكئيب
 بيت البحرى على هذا النحو :

أتسلى عن الخطوب وآسى لمحل من آل يونان درس

وقد ارتفع الضحى وأوشك النهار أن يتتصف حين هبطنا

من المدينة العليا مدينة الموتى والآلهة ، إلى المدينة السفلى مدينة

الأحياء والمنافع وما تجر المنافع على الناس من الأرزاء والكوارث

والخطوب . وهؤلاء رفاقي قد ردوا نفوسهم العاقلة الشاعرة إلى

أماكنها الخفية القصية من أعماق الضمائر ، واستردوا نفوسهم
 المفكرة المدبرة ، واستقبلوا الحياة اليومية كما يستقبلها غيرهم من
 الناس ، فجعلوا ينظرون إلى دور التجارة وما يعرض فيها للبيع
 والشراء . وجعلوا ينظرون إلى الداهيين والآيين يتوسمون في
 وجوههم وفي أشكالهم وصورهم ، ليتبينوا مظاهر النعيم عند قوم
 ومظاهر البؤس عند قوم آخرين ، ويستخلصوا لأنفسهم رأياً
 عن حياة اليونان المحدثين في مدينتهم الخالدة . فما أكثر ما قرءوا
 وما أكثر ما سمعوا عن حياة اليونان في بلادهم ! قوم يقولون
 إنها بلغت من البؤس أقصاه . وقوم يقولون إنها بلغت من النعيم
 أقصاه ، وقوم يقولون إن اليونان كغيرهم من الناس قد لعبت
 بهم تلك الإلهة العمياء التي تسمى المصادفة ، فأعطت بغير
 حساب وحرمت بغير حساب ، وأمسكت بعض الناس في نعيم
 ناعم ، وأمسكت بعضهم الآخر في بؤس بائس . وتركت فريقاً
 ثالثاً يترددون بين السعادة والشقاء ، يدعون فلا يسمع لدعائهم
 أحد ، ويمدون أكفهم إلى المصادفة فتلقى فيها الشيء بعد الشيء
 وتردها أصفاراً في أكثر الأحيان ؛ فهم ينفقون حياتهم في أمل
 متصل وانتظار خائب ، لا يستيئون فيريحهم اليأس ، ولا يظفرون

فيريحهم الظفر، ولكنهم معلقون بين اليأس والرجاء، تعبت بهم
ريح الحياة الموحاء عبثاً مضنياً ملحاً لا يريح منه إلا الموت .
وقد بلغنا قهوة من قهوات أثينا فنقبل عليها مكدودين، ويتلقانا
خادمها باسم الثغر مشرق الوجه يعرض علينا ما عنده في يونانية
فصيحة، فإذا لم نفهم عنه عرض علينا ما عنده في فرنسية متعثرة ،
وإذا هو يعرض علينا خير ما تعرض القهوات على الناس
في بلاد الترف والرخاء . وما نكاد نجلس إلى قهوتنا ونقبل على
قليل من طعام حتى ننظر فإذا المعوزون والمعدمون يساقطون
علينا من كل وجه ويأخذوننا من كل نحو، كلهم جائع يريد
أن يطعم، وكلهم محروم يريد أن يعطى ، وكلهم قد ظهر في
وجهه البؤس وألح عليه الضرر، وإذا قهوتنا منغصة وطعامنا إلينا
بغض، وإذا نحن نهض مشاقلين نريد أن نفر بأنفسنا من هذه
المدينة التي اختلط فيها البؤس والنعيم وامتزجت فيها الضراء والسراء،
وسعد بعض أهلها حتى ضاقوا بالسعادة ، وشقى بعض أهلها
حتى ضاق بهم الشقاء .

وقد فاجأتنا في هذه المدينة بل فاجأتنا قبل أن نهبط من
السفينة ظاهرة كنا نسمع عنها ولا نحققها . فالدرهم اليوناني

قد أصبح وهماً من الأوهام ، لا يكاد عقل يحقق منه صورة
 واضحة . ويكفى أن تعلم أن المليم المصرى يعدل ثمانية وعشرين
 درهماً يونانياً ، وأن القرش المصرى يعدل ثمانين ومائتى درهم يونانى
 وأن الجنيه المصرى يعدل ثمانية وعشرين ألف درهم يونانى ،
 وأننا لم نقم عن قهوتنا حتى طلب إلينا الخادم سبعة عشر ألف
 درهم ، ولم ننزل من سيارتنا حتى طلب إلينا السائق سبعين ألف
 درهم ، واشترينا صحيفة ضئيلة نحيلة تصدر بالفرنسية فدفعنا ثمنها
 خمسمائة درهم ، وعدنا إلى أماكننا من السفينة وقد أنفقنا فى
 صباحنا بين هذه الألوف المؤلفة أقل من ثلاثة جنيهات . فانظر
 إلى هذه الأرقام التى تملأ الأفواه والآذان وتروع العقل والخيال ،
 حتى إذا أحصيت وحقت لم تتكشف إلا عن أيسر اليسير
 وأقل القليل . وكذلك حياة اليونان فى أيسر ما ظهر لنا أثناء
 هذه الساعات القصار ألفاظ ضخمة تملأ الأفواه والآذان
 وتروق العقل والخيال ، تم تتكشف آخر الأمر عن غير طائل ولا
 غناء . وإنما هو الجوالذى عاش اليونان فيه دائماً ، جو البغض
 الكثير والحب القليل ، والصراع المهلك بين الإخوة لا يحفل
 بشيء ولا يبق على شيء ولا يتخرج من شيء ولا يكره الاستعانة

بالأجنبي على الأخ الشقيق والخليل الصديق .

كذلك عاش اليونان في عصورهم القديمة ، فانقسم أهل أتيننا بين المتعصبين لإسبرتا والمتعصبين للفرس وبين المتعصبين لإسبرتا والمتعصبين لمقدونيا . وهم الآن ينقسمون بين المتعصبين للشيوعية الروسية والمتعصبين لرأس المال الأمريكى البريطانى . وأولئك وهؤلاء يتنازرون بالألقاب ويتقاذفون التهم ويتداعون بالإثم والإجرام ويهدر بعضهم دم بعض ، حتى إذا جد الحد وأقبلت الكوارث الجسام رأيت الشعب اليونانى قد ثاب إلى وحدة موقوتة ولكنها رائعة تفعل الأفاعيل وتأتى بالأعاجيب . وهو حين يتفق وحين يفترق وحين يأتلف وحين يختلف وحين يتظاهر وحين يتآمر موطن مخصب العقل والقلب والضمير ، قد امتلأت نفسه خيراً حتى أفاضت الخير من حولها ، وامتلأت نفسه شراً حتى أفاضت الشر من حولها ، وأتاحت للحكماء والفلاسفة أن يتفكروا ويتدبروا ويمثلوا الأرض حكمة وعلماً ونوراً .

وقد صعدنا إلى السفينة بعد أن انتصف النهار وقد غنيت
قلوبنا بما شهدت من روعة القديم اليونانى وعبرة الحديث اليونانى .
 ونحن ننفق فى السفينة ساعات نضطرب فى أمورنا كما تعودنا

أن نفعل وكما تعود السفر أن يفعلوا، وأنا أريد أن أسترد نفسي
 فلا أجد إلى ذلك سبيلاً . وقد أخذ صاحبي كتابه وجعل يقرأ
 فيه وجعلت أسمع له بأذني وأعرض عنه بعقلي وقلبي . ولكن ماذا ؟
 إن شيئاً يحدث فإذا أنا أعود إلى نفسي فجاءة لا لأبقى معها
 بل لأشغل عنها بعد قليل . فهذا الجو قد امتلأ من حولي نغماً
 كأروع ما يكون النغم يحمله «الراديو» من أتينا يملأ به السفينة
 ويسعى معها في البحر . وأنا أعرف هذا النغم وآلفه وتصبو
 إليه نفسي ، وأخلو إليه في القاهرة بين حين وحين ، فيضع عن
 نفسي ما يثقلها من الإصر وما يكون عليها من الأغلال ،
 ويردها إلى ما أحب لها من النقاء والصفاء ، والترفع عن الصغائر
 والدنيات . إنه لحن بيتهوفن الذي يسمى لحن الإمبراطور .
 لقد أقبل علىّ فأقبلت عليه ، ولقد غمر نفسي بنور لا يشبهه
 إلا النور الذي غمرها في الضحى حين كنت في القلعة الآتينية
 الخالدة . جمال الآثار اليونانية يملأ النفس إشراقاً مع الصبح ،
 وجمال الموسيقى يملأ النفس إشراقاً مع المساء . إنني لظالم للحق
 ولنفسى حين أحفل بهذه الضفادع البائسة التي تملأ جو مصر
 نقيقاً . وما الذي يمنعني حين تثقل علىّ عشرة الضفادع أن

أنسل من بينها كما تنسل الشعرة من العجين ، فأخلو إلى روائع
القديم وأخلو إلى روائع الحديث ، وأتعزى بجمال الأدب والفن
والموسيقى عن قبح السياسة والمنافع وغدر الغادرين ومكر الماكرين
وخيانة الخائنين !

أفق أيها القلب الذى شفه الحزن وبرح به الألم وتركت فيه
عشرة الناس ندوباً بغیضة . أفق أيها القلب ؛ فإن عشرة الناس لم
تفرض عليك ما دمت تستطيع أن تفر منها إلى عالم كله صفاء
ووفاء وطهر ونقاء ورفعة وإباء . لقد كنت كلما ألحت عليك
الخطوب تتمدح بأنك قد اتخذت لنفسك شعاراً من قول
أبي نواس :

وما أنا بالمشغوف ضربة لازب ولا كل سلطان على أمير
فما لك قد أدركك الضعف وسعى إليك الوهن ، وكدت تشك
فى نفسك وكدت تنكر من أمرك ما لم تتعود له إنكاراً ؟ ! لشب إلى
نفسك ولشب إليك نفسك . ولتصف إلى هذا البيت الذى تحبه
من شعر أبي نواس بيتاً آخر طالما أحببته من شعر بشار :

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي على سواد
وقد أنكرتك مصر أو أنكرت مصر ، فخرجت منها ذات يوم

مع الصبح ، ولم تكذ تنأى عنها حتى غمرك جمال القديم اليونانى
 فى الضحى ، وجمال موسيقى بيتهوفن مع المساء ، فنسيت مصر
 وأهلها ، ونسيت مكر الماكرين ، ولهوت عن غدر الصديق وعن
 جحود الجاحدين . والنغم من حولي يملأ الجو قد أخذ نفسى
 من جميع أقطارها ، وغمر قلبي من جميع وجوهه ، وإذا أنا فى هذه
 الساعة القصيرة الحلوة أحس كأنى أعيش مع ابنتى التى تركتها
 فى القاهرة ومع ابنى الذى أسعى إليه فى باريس . وقد أخذت
 زوجى بيدى وهى تقول لى فى همس رفيق : ألا تظن أن حياة
 الناس ما زالت بخير ما داموا يستطيعون أن يصعدوا إلى
 الأكروبوليس حين يقبل الصبح ، وأن يستمعوا إلى بيتهوفن حين
 يقبل الليل ؟ !

ذكرته منذ أشرق الصبح إلى أن أقبل الليل؛ فلم تكد السفينة
تدنو من الساحل وتستقبل ثغر جنوا حتى ملأت ذكراه قلبي
وعقلي، وضميرى . ولم أكد أهبط من السفينة وأمس بقدمي
أرض هذه المدينة حتى أحسست كأنه يسعى معي قد أخذ
ذراعى اليسرى بذراعه اليمنى ومضى معي في أناة وتؤدة ووقار،
يتحدث إلى في صوته الممتلئ الذى يستحب الهمس على الجهر،
ويطرق معي في حديثه موضوعات مختلفة كثير منها يتصل بالدعابة
والعبث الحلو أو المر، وقليل منها يتصل بالجد الصارم .

ذلك أنى صحبته على هذا النحو منذ بضعة عشر عاماً حين
شهدنا معاً مؤتمر المستشرقين الذى اجتمع فى روما سنة ١٩٣٥
وقد قضينا أيام المؤتمر نساكن داراً واحدة نغدو منها مع الصبح
إلى الجامعة القديمة لنشهد جلسات المؤتمر، ونعود إليها متلكنين
حين يريد النهار أن ينتصف، نسعى سعياً رقيقاً وقد نعوج على

هذه القهوة الكبيرة أو تلك القهوة الصغيرة فلم بها إلمامة قصيرة .
 ثم نتكلف الإسراع إلى الدار حتى لا يطول انتظار الذين
 سيشاركوننا في الغداء . ثم لا ننصرف عن طعامنا حتى نرجع
 إلى الجامعة مسرعين . فنقيم فيها ما أمسكنا المؤتمرون بأحاديثهم
 ومحاضراتهم ، ثم نروح منها وقد تخففنا من ثقل ثقل وفرغنا من
 العلم والعلماء لأحاديثنا العابثة الجادة التي لم تكن تحب أن
 تنتهى قبل أن ينتصف الليل . فلما تقضت أيام المؤتمر وزرنا من
 معاهد روما ومعالمها ما شاء الله أن نزور ، مضينا معاً إلى فلورنسا
 فأقمنا فيها يوماً وبعض يوم ، نريد أن نزور معالمها ومعاهدها
 ومتاحفها في شيء من الجد ، ويأبى علينا الكسل وحب الحديث
 إلا أن نمضي في شوارعها متباطئين ، ونجلس في قهواتها كلما
 أتيح لنا الجلوس ، ونشترى من طرفها ما كانت تسمح لنا بشرائه
 ثمالة من المال بقيت لنا من سفر طويل تنقلنا فيه بين
 باريس وروما وغيرهما من المدن الفرنسية والإيطالية . ثم
 نبليغ حينها ذات يوم حين مضى أكثر النهار ، وإذا المدينة قائمة
 قاعدة تشارك إيطاليا كلها في قيامها وعودها ؛ لأنها كانت تنتظر
 كما كانت إيطاليا تنتظر وكما كان العالم كله ينتظر نبأ خطيراً

وحديثاً أجل منه خطراً . في ذلك اليوم كانت إيطاليا تنتظر
 أن تدعى كلها في الأصيل إلى تعبئة تجريبية وإلى الاستماع
 لخطبة كان موسوليني يريد أن يلقيها على الشعب الإيطالي كله
 بل على العالم كله . وما هي إلا أن ينطلق ذلك الصغير المزعج .
 فتمتلئ به أرجاء المدينة ، وتفرغ له الدور والمتاجر والمصانع ،
 ويهرع له الناس كلهم شيوخهم وكهولهم وشبابهم وصبيانهم
 إلى الميادين العامة ليسمعوا حديث موسوليني عن غزو الحبشة
 وتجديد الإمبراطورية الرومانية التي يجب أن يكون لها مجد
 طريف يشبه مجدها التلبد . ولم أحس الغربة قط كما أحسستها
 في ذلك المساء ؛ فقد كان الإيطاليون جميعاً مبتهجين تملأ قلوبهم
 الثقة ويغمر نفوسهم الأمل وتطمئن ضمائرهم إلى أنهم قد ملكوا
 الدنيا وقهروا أهل الأرض وأصبحوا للناس جميعاً سادة وقادة
 وعليهم جميعاً ملوكاً وحكاماً . ونجلس إلى مائدتنا حين يقبل
 الليل ، وإذا الخادم يسعى علينا بصحافه وأكوابه وفي نفسه كثير
 من الازدراء لنا والعطف علينا ؛ فقد علم أننا مصريون وقدر
 في نفسه أن سنكون له في يوم من الأيام أتباعاً وخداماً ، وأن
 سيكون منا من يسعى لخدمته بالصحاف والأكواب كما يسعى

هو لخدمتنا . وهو يعنف بنفسه ويشق عليها حتى لا يتحدث إلينا
 بما يداعب ضميره من الأمل ، ولكنه آخر الأمر لا يملك أن يقول في
 ضحك ساخر: أسمعتم دعاء النفير؟ إنه إيدان بسقوط الإمبراطورية
 البريطانية ؛ فلن تشرق شمس الغد حتى تزلزل الأرض بهذه
 الإمبراطورية التي أذلت الناس ؛ والأيام دول ، فسيدال من
 بريطانيا العظمى لإيطاليا منذ اليوم .

ونسمع نحن فنخفي الغيظ ونكتم السخرية وتستخف نفوسنا
 بإيطاليا وبريطانيا جميعاً . ولكننا نذكر مصر فنرثي لها ونشفق
 عليها ، ونسأل أنفسنا عما تضررها الأيام وعما سيصيبها من هذا
 الصراع ، ثم لا نلبث أن نعود إلى حديثنا الذي يعبت كثيراً
 ويجد قليلاً . حتى إذا فرغنا من طعامنا خرجنا نساير ساحل البحر
 وفي يد كل منا سيجار ضخيم يرفعه إلى فمه بين حين وحين ،
 والحديث متصل لا يريد أن ينتقضي ، وقد بلغ السيجار آخره وتبعته
 السجائر الصغار ، حتى إذا أوشك الليل أن ينتصف عدنا إلى
 فندقنا وأوينا إلى مضاجعنا ، وغدونا مع الضحى إلى السفينة
 فأبحرنا عائدين إلى مصر ، وقضينا أيام السفينة فرحين مرحين ،
 نطرد الجدد إذا ألم بنا الجدد ، ونذود حديث العلم إذا خطر لنا

حديث العلم ، ولكننا لا نكاد نستقبل ثغر الإسكندرية حتى نفرق ساعة أو بعض ساعة ثم نلتقى ، وإذا هو قد دخل في زيه القديم واسترد وقاره الذي يعرفه مواطنوه وجلس والتف حوله نفر من المصريين يتحدثون إليه ويسمعون منه في إكبار واجلال . وأدنو فيلقاني كما تعود أن يلقاني في مصر ملقياً إلى تحيته الحلوة بصوته العذب الذي يملؤه الجلد وتستخفي فيه مع ذلك دعاة يستسيغها هو وأسيغها أنا ، ولا يحس الحاضرون منها شيئاً .

كل هذا ذكرته حين وطئت قدماي أرض چنوا ، وكل هذا استحضرتة وأنا أطوف في المدينة ألم بهذه القهوه وأقف عند هذا المتجر وأدخل هذا المطعم ، ولا أترك المدينة حتى أمر بالمطعم الذي أصبنا فيه عشاءنا في يوم من أيام سبتمبر سنة ١٩٣٥ .

وأشهد لقد كنت في ذلك اليوم شخصين مختلفين كل الاختلاف : أحدهما يظهر الفرح والمرح ، ويظهر الكآبة والحزن يفرح بزيارة إيطاليا التي لم يرها منذ أعلنت الحرب ، ويحزن لما أصاب المعالم والمعاهد فيها من الدمار ، ولما شاع في نفوس أهلها وعلى وجوههم من البؤس ، وهذه الصور التي تعرض في بعض الشوارع تمثل بعض الذين فتكت بهم الحرب فتكاً مروعاً

بشعاً، وهذه الأزهار الرخصة التي صفت عند هذه الصور
والتي يتعهد بها الناس فيغيرونها قبل أن يدركها الذبول .

والآخر حزن كله وكآبة كله، ووفاء كله لا يعرف الفرح
إليه سبيلاً ، ولا يسمع لحديث الذين يسعون من حوله ، ولا
يحبس أن أحداً يسعى من حوله ، وإنما يسمع لحديث واحد متصل
بعث كثيراً ويجد قليلاً ، ولكنه يأتي من مكان بعيد يخترق إلى
حجب الموت وينفذ إلى طرق الحياة .

وأبلغ السفينة كاذب الفرح صادق الحزن منافقاً فيما بيني وبين
الناس من صلة ، فأضطرب مع السفّر فيما يضطربون فيه . حتى
إذا أبحرت السفينة وأقيل الليل ثم تقدم فبلغ نصفه أو كاد
وهدأت الحركة من حولي ونام الأهل والزمان ، برئت من
الفرح الكاذب وتخلصت من هذه الصلات المنافقة ، وخلوت
لا إلى نفسي ولكن إلى هذا الصديق العزيز أسمع حديثه يخترق
إلى حجب الموت وينفذ إلى طرق الحياة ، وقد فנית في هذا
الحديث حتى لم أحس شيئاً ولا خطراً ولا فكرة ولا شعوراً .
ولكنني أهبّ فجاءة وقد ملكني الذعر وملأني الخوف لأنني أسمع
صوته ، أسمعه بأذني لا بضميري . أسمعه كما يسمع الناس أصواتهم

حين يتحدث بعضهم إلى بعض . أسمعته وأمد يدي كأني أريد
أن أصافح يده ، ولكن يدي لا تلتقي شيئاً وإنما هي ممتدة في
الهواء ، والصوت الحلو الجاد الذي تشيع فيه السخرية الخفية
متصل يقول :

يا مؤثر السهد على النوم عداك ما تخشى من اللوم
قد أقبل الناس على لهومهم وماز الجدد من القوم
أحافظ أنت لذكراى أم شغلت عن أمسك باليوم
ولولا أنى وجدت في صوته إيناساً رد إلى نفسى لحفت أن
أصبح فأروع النائمين . ولكنى أنست إلى هذا الصوت كما تعودت
دائماً أن آنس إليه ، وإذا أنا أسأله من تكون ؟ وإذا أنا أسمعته
يقول إنك لتعلم من أكون ، سلتى إن شئت بضميرك ولا تبجهر
بسؤالك ولا تخافت به ؛ فإن للموتى آذاناً تسمع نجوى الضمير .
وقد جعلت ألتمس نفسى وأحقق ما حولى لعلنى أن أكون
مغرقاً في نوم أو هائماً في حلم ، ولكنه يردنى إلى الثقة ويؤكد لى
في صوته العذب الحلو أننى لست نائماً ولا حالماً ولا هائماً ،
وإنما أنا يقظ كأقوى ما تكون اليقظة ، حاضر الذهن كأحسن
ما يكون حضور الذهن . وكل ما فى الأمر أنى أنكر مكانه

منى فى هذه السفينة التى تسعى بين إيطاليا وفرنسا متابعة عن بعد ساحل الريفييرا، على حين أنه قد ترك دنيانا هذه منذ عام وبعض عام . وأكاد أجيبه بأن هذا هو الشعور الذى أجده والخاطر الذى أديره فى نفسى . ولكنه ليس فى حاجة إلى أن أرد عليه رجح حديثه؛ فهو يختطف الشعور الذى أجده قبل أن أحققه فى نفسى ، ويختطف الفكرة التى تخطر لى قبل أن أستتمها فى ذهنى . وكأنه أحس أن هذا الحديث الخاطف يشق علىّ ويكلفنى من الجهد والمشقة ما يجاوز طوق الأحياء، فيعتذر إلىّ متلطفاً وهو يقول : لا بأس عليك ! فقد تحدثت إلى الموتى منذ عام وبعض عام حتى ألفت أحاديثهم الخاطفة، وأنسيت حديث الأحياء ذلك المستأنى البطيء . وأهم أن أسأله عن مكانه منى ، فينبئنى بما يملأ نفسى وجلا ورعباً، وبما أحب أن يستحضره الأحياء دائماً حين يعملون وحين يقولون وحين يفكرون وحين تتصل أعمالهم وأقوالهم وخواطرهم بما كان بينهم وبين الموتى من صلة قبل أن يقطع الموت بينهم أسباب الحياة . ينبئنى بأن الموتى لا يفارقون الأرض إذا خرجوا من أجسامهم إلا بعد وقت طويل لا يعد بالأشهر ولا بالأعوام . فهم فى هذه

المهلة التى تتاح لهم قبل أن يخرجوا من الأرض موكلون بمثل ما كانوا موكلين به قبل أن يموتوا : يرون ويسمعون ويعرفون وينكرون، ولكنهم لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً أو أن يحدثوا شيئاً . وهذه المهلة هى التى يشار إليها فى أحاديث الديانات والسير والأساطير بما يسمى الأعراف ، وقت يمتحن الناس فيه بعد أن يموتوا وقبل أن يتلقوا ما قضى لهم من مثوبة أو عقوبة . يرون فيه أعمالهم وأقوالهم وآثارهم ، فيشقون كثيراً ويسعدون قليلاً ويمحصون بما يجدون من السعادة والشقاء . ولا يبلغون آخر هذه المهلة حتى يكونوا قد خلصوا لما سيستقبلون من حياة راضية أو قاسية إلى آخر الأبد إن كان للأبد آخر .

وهم فى هذه المهلة مدفوعون إلى أن يستعيدوا حياتهم الأولى كما أنفقوها ؛ فهم يلحون بكل مكان ألموا به حين كانوا يحيون فى حياتهم الدنيا ، وهم يعرضون على ما قدموا من خير وشر ويعرض عليهم ما قدموا من خير وشر ، وهم يمثلون سيرتهم كلها تمثيلاً ، فيعملون الخير عالمين بأنه الخير ويجدون لذلك راحة وروحاً ، ويقارفون الشر عالمين بأنه الشر فيجدون لذلك شقاء وبؤساً وعذاباً أليماً .

قال صاحبي : وثق بأننا لا نمثل حياتنا مرة أو مرتين أو مرات قليلة ، وإنما نمثلها ونمثلها مراراً لا تحصى ، حتى يشق علينا ذلك ويضيق بنا أو يضيق به ، وحتى يود كل واحد منا لو صرف عن حياته صرفاً فلم يخرج إليها ولم يخرج منها ، وحتى يقول كل واحد منا في نفسه ألف مرة ومرة في كل يوم بل في كل ساعة : يا ليتني كنت ترابا .

قال صاحبي : وأنت تراني الآن في هذه السفينة أتحدث إليك وأسمع منك ؛ فأصل ذلك أن حياتي التي أنفقتها في إيطاليا وفي فرنسا وفي أوروبا كلها تعرض على وأنا أعرض عليها ؛ فقد كنت في روما قبل أن ألقاك وأقبلت على جنوا فلقيتك ، وما أدري أأدفع إلى فرنسا فألقاك أم أرد إلى مصر أم أدفع إلى وجه آخر غير فرنسا ومصر من الوجوه التي دفعت إليها في حياتي الأولى . بل ما أدري ! لعل أن أدفع إلى فرنسا وأن أدفع إلى باريس ، وأن ألتزم بالأماكن التي أملت بها وحدي أو مع غيرك من أصحابي ، وأن ألتزم بالأماكن التي أملت بها معك ، ثم لا يتاح لي مع ذلك أن ألقاك كما ألقاك الآن ، وأنا أقول لك وأسمع منك منك كما أقول لك وأسمع منك الآن ؛ فإن أمورنا في هذه المهلة

التي أتيت لئلا تجرى على قوانين لا نعقلها ولا نحققها ولا
 نحيط بها ، كما كانت أمورنا في حياتنا الأولى على قوانين ليس
 لنا عليها سلطان . قلت لصاحبي : وتظن أن أمورنا تجري في
 حياتنا الدنيا على قوانين لا سلطان لنا عليها؟ قال : لا أظن ذلك
 وإنما أقطع به ، ولو قد جرت أمورنا على قوانين نعرفها ونألفها
 لقدمنا من الأعمال غير ما قدمنا ، ولتجنبنا من السيرة ما أقبلنا
 عليه راغبين فيه عاكفين عليه محبين له أشد الحب . أتذكر أنك
 أنكرت على ذات يوم بعض أمري دون أن تحدثني بإنكارك
 أو تظهرني على ذات نفسك ، وإنما وجدت على وأضمرت الموجدة
 وأحسست أنا ذلك إحساساً قويا ، ولت نفسي فيه بعض اللوم
 ولكني مضيت لشأني غير مثقل على نفسي بالعتب ولا ملح
 عليها في اللوم .

أتذكر ذلك ؟ قلت : نعم ! قال : وتذكر أنك لم تتحدث
 بموجدتك إلى أحد من الناس؟ وإنما تحدثت بها إلى ما حفظت في
 نفسك من ذكرى إخوتي الذين سبقوني إلى الموت ؟ قلت : نعم !
 قال : فهل تعلم أن موجدتك تلك تعذبن عذاباً لا قبل لى به ؟ !
 قلت : فإنني قد أنسيت هذه الموجدة قبل أن تفارقنا . ألا تذكر

أنا التقينا وتصافينا واستعدنا ودنا القديم غصا نضراً كأحسن ما عرفناه؟ قال: بلى! إنك قد أنسيت هذه الموحدة وإن ما استأنفنا من الصنفو والعفو قد أراحني من وخز الضمير، ولكن إخوتي لم ينسوا هذه الموحدة، ولكن الكتاب الذي يسجل علينا أعمالنا ولا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها قد سجل إساءتي إليك فيما سجل. فهل تريد أن تعرف كيف أعذب بإساءتي إليك ووجدك على؟ لا يكاد يمضي وقت طويل حتى أراني أحدث الإساءة إليك بمحضر من إخوتي كلهم، وأراك تأسى لذلك أشد الأسى، وأرى إخوتي ينظرون إلى شرراً ثم يتحولون عني معرضين عائفين، ثم يكرهون لقائي وحديثي وقتاً لا أحصيه. وأجد أنا من موجدتك ومن إعراضهم ومن هذه الصورة البشعة التي تعرض على أماً لا أستطيع أن أصوره ولا أستطيع أن أصبر نفسي عليه. وكذلك أعذب بسيرتي كلها منذ استجبت لظروف الحياة، فأثرت المنفعة العاجلة على المودة القديمة، وأرضيت السياسة على حساب الصداقة والإخاء. قلت: وقد أثر ذلك في نفسي أبلغ الأثر: فهل أملك لك من هذه العاقبة المؤلمة شيئاً؟ قال: نعم! تملك أن تغفر لي وقد فعلت، وأن تستغفر لي لعل الله أن

يتجاوز لى عما قدمت ، ولعل إخوتى أن يلقونى بغير ما جعلوا
يلقونى به من النبى والإعراض . قلت : لأفعلن ولأدعون أصدقائك
جميعاً أن يفعلوا مثل ما أفعل وأن يستغفروا لك مصبحين ومسيين
وهذا أيسر مالك عليهم من الحق ؛ فقد بررتهم ورفقت بهم
وأحسنيت إليهم ، والحسنات يذهبن السيئات ، والمكرمات يمحو
الخطايا . قال : وأخرى أحب أن أدعوك إليها وهى ألا تشكو
الأحياء حين يسيئون إليك إلى الموتى ؛ فإن للموتى قسوة لا تكاد
تحققها ، فهم لا يعرفون رحمة ولا رافة ولا إشفافاً . فهما يسىء
الأحياء إليك ، فلا تكلهم إلى الموتى ولا تستعدى عليهم أحداً ،
ولكن كلهم إلى عفوك وصفحك ، وكلهم بعد ذلك إلى أنفسهم ؛
فإن لهم ضمائر إن لم تعذبهم الآن فستعذبهم بعد أن يفارقوا الحياة
وارحمته للأحياء من عذاب الضمائر حين يموتون !

وهاً لإخوانى قد أفطروا ولم أزل أمعن فى الصوم
قلت فىنى لم أفهم عنك هذا البيت .
قال : ولن تفهمه حتى تصوم كما أصوم ؛ فإن للموتى أحاديث
لا يستطيع الأحياء لها تأويلاً .

وأريد أن أرد عليه رجع حديثه ، ولكنى أسمع صوتاً عذباً يدعونى

قائلا : واه! للذين ينامون وقد استقبلت السفينة ثغر مارسيليا،
 فأفئق متكفأً وأنهمض متثاقلا وأريد أن أقص على زوجي بعض
 ما كنت فيه ، ولكنها تسخر مني قائلة : لو انصرفت عن بعض
 السخف الذي تغرق فيه نفسك أثناء اليقظة لما عرضت لك
 هذه الأحلام المروعة . يجب أن تكون قد فكرت قبل أن تنام
 في تلك القصة التي أثقلت على وعلى الناس بالحديث عنها
 والتي أجراها صاحبك چان پول سارتر بين الموتى ، كأنه قد فرغ
 من الأحياء فلم يبق له إلا أن يشغل نفسه بالموتى . أسرع إلى
 ثيابك ؛ فإني لم أعدد أمتعتنا بعد ، وما أحب أن نبلغ المرسى ونحن
 في غرفتنا هذه . وأسرعت إلى ثيابي طائعا وأنا أقسم بيني وبين
 نفسي ما فكرت في قصة چان پول سارتر منذ ركبت في
 السفينة بل منذ أكثر من شهرين .

٤

فالت وفي صوتها حنان ينم عن كامن التبع
لا يلبث الأصدقاء حتى يدعهم للفراق داع
ثم ألقت إليهن نظرة طويلة حزينة وإن كان قلبها ليملؤه
الفرح والمرح والغبطة لبلوغها أرض وطنها ولأنها ستلقى ابنها بعد
يوم وبعض يوم . قالت لى وهى تنهد تنهداً لم يستطع أن يخلص
للحزن : « وددت لو استصحبتهن إلى باريس . ولكن ماذا
أصنع بهن أثناء هذا النهار الطويل الذى سننقعه فى مارسيليا
منتقلين من قهوة إلى مطعم ومن مطعم إلى قهوة وهن صاديات إلى
الماء ؟ ! قلت متضاحكاً وفى نفسى حزن لا يكاد يبين : نعم !
وماذا تصنعين بهن فى هذا النهار الطويل الذى ستقضينه فى
مارسيليا متنقلة بين المتاجر ، لا تلمين بواحد منها إلا لتتركه
إلى غيره ، محبة لذلك مشغوفة به ، لا تشتري وإنما تنظرين وتقدرين
لعلك أن تشتري ذات يوم ؟

وكذلك تحول الحديث من جد إلى لعب ، ومن حزن إلى
فكاهة ودعابة ، وأضمرت القلوب ما أضمرت لتلك الزهرات
النضرات من حب وود وحنان . وكانت تلك الزهرات قد
لقيتنا في محطة القاهرة أرسلها للقائنا ووداعنا ومرافقتنا أثناء
السفر صديق كريم علينا حبيب إلينا ، وحملها من مودته وإخائه
ووفائه ما لا تستطيع الكلمات أن تؤديه ولا أن تحمله ، وما يحسن
الزهر أن يحمله ويؤديه في بلاغة قصد لا يزينها الإطناب ولا
يحسنها الإيجاز ولا تستقيم لها المساواة ، وأين هي من ذلك وهي
الابلاغة لا تؤدي إلى القلوب بالأصوات والكلمات وإنما تؤدي
إليها بالجمال النضر البارع والأرج الرائع النفاذ ! ولم تكد
هذه الزهرات تلقانا وتسمع في شيء من السخرية حديث من
حملها إلينا وهو يبلغنا تحية مرسله ، وحديثنا نحن ونحن
نتقبل التحية شاكرين ونتلقى الزهر كلفين به مرتاحين إليه —
أقول لم تكد هذه الزهرات تلقانا ساخرة من كلامنا ومن
إعجابنا ومن عبارات التأثير تلك التي يتبادلها الناس ، حتى طوت
عنا أسرارها طيًّا وأخفت علينا أخبارها إخفاء . كانت تعلم في
أكبر الظن أن القطار لا يصلح لنجوى الزهر ، لكثرة ما يملأ به

الأنفس والأسماع من الضجيج والعجيج ، ولكثرة ما يعرض للسفر فيه مما يشغل عن النجوى والحديث .

والزهر لا يحسن النجوى إلا حين يهدأ من حوله كل شيء ،
 وحين يخلو إليك وتخلو إليه ، وحين يفرغ لك وتفرغ له .
 فلم تحفل بنا إذن تلك الزهرات وإنما انطوت على نفسها انطواء ،
 والتوت عنا التواء ، وأسرعنا إلى صاحب « البولمان » نلتمس عنده
 شيئاً من ماء ، فانتظرنا راضية أو كارهة وصحبنا بين القطار
 والسفينة ناعمة أو بائسة واحتملت عبث الأيدي بها حين بلغنا
 مستقرنا من السفينة ، وأوت إلى الآنية التي صففت فيها تصفيفاً ،
 ولم تكد تفرغ من الناس ويفرغ الناس منها حتى تحدثت
 فأحسن الحديث .

تحدثت إلى قلوبنا وأذواقنا وعواطفنا ، فزينت الود الخالص
 الذى لا يصدر عن طمع ولا عن خوف ، والذى لا يشوبه
 رهب أو رغب ، والذى لا تفسده مخادعة أو مصانعة ، والذى لا يعرب
 عن آمال تريد أن تحقق وتخشى أن تخيب ، والذى لا يصور
 بأساً من غيرك ورجاء فيك ، والذى لا يبتغى عندك نفعاً ولا
 يتقى منك ضراً ، والذى لا يكدره ما يكدر صلوات الناس من

هذا الشر المنكر الذى تخفيه الضمائر وتكتمه القلوب ، وإنما هو
الود الصفو العفو الذى يصدر من النفس إلى النفس ، ويصل
القلب بالقلب ، ويبلغ الضمير رسالة الضمير .

وتحدثت عن هذا الإخاء الذى لا يأتى من قرابة النسب ولا من
اشتراك المصالح ولا من تضامن الناس وتعاونهم ليكيد بعضهم لبعض
ويمكر بعضهم ببعض ، وإنما يأتى من الأدب حين يتصل بين
الناس شعور صفو بالجمال الصفو وطموح رفيع إلى الحق الرفيع .

وتحدثت عن هذه الصلات الحلوة التى تنشأ بين الناس
بريئة إلا من حب المعرفة ، نقية إلا من الترفع عن الصغائر
والتنزه عما يشين الرجل الكريم . وكانت أحاديثها رقيقة رشيقة
لا تؤذى السمع ولا تشق على النفس ولا تشغل عما يعرض للناس
وما يعرض الناس له من المنافع والمآرب والحاجات ، وإنما تسعى
عبيراً أرجاً دقيقاً فتبلغ أعماق الضمير فى غير جهد ولا تكلف ،
أو تتمثل جمالاً رائعاً بارعاً فيه نضرة الندى ورقة النسيم
وابتسامة الشمس المشرقة وهدوء الليل المطمئن وخصب الأرض
الغنية وغناء الطير الفرح المرح ، فتملأ العيون بهجة وتنفعم النفوس
غبطة ، وتشيع فى القلوب رضا وأمناً واطمئناناً ، وتقر فى العقول

أن الحياة ليست كلها غدرًا ومكرًا وكذبًا ومينًا وخداعًا ونفاقًا
وكدرًا ورنقًا، وإنما هي شيء أرقى وأنقى وأجمل وأكمل من هذا كله،
وهي خليقة أن تحياها ما دامت الطبيعة تستطيع أن تهدي
إلى الناس زهرا نضراً يحمل ابتسامة الشمس ورقة النسيم وعدوبة
الندى وهدهوء الليل ونخب الأَرْض، وربما تحدثت إلى
النفوس ألواناً من الحديث لا تستطيع لغات الناس أن تصورها
لأنها غامضة أغمض من أن تسعها الألفاظ، ولأنها واضحة
أوضح من أن تنكرها النفوس، ولأنها تصور من نجوى الشجر
والزهر حين تشملهما ظلمة الليل أو يغمرهما ضوء النهار، وما يكون
من مرح الغصون حين يداعبها النسيم ومن جزعها وفزعها حين
تعصف بها الرياح، وتصور مرح الطير حين يسفر الصبح
واكتئابها حين يدنو الأصيل، وتصور ما يكون بين أمواج
الأنهار والحداول من مداعبة وملاعبة ومعاتبة ومغاضبة، وتصور
ما تحمل الشمس المشرقة إلى الأرض من تحية وما تضممر
الشمس المحرقة على الأرض من موجدة، وتصور هذه الرسائل
الجليلة الخفية التي تحملها أشعة الكواكب والنجوم بين الكواكب
والنجوم.

تصور هذا كله وأكثر من هذا كله ، وتحمله إلى النفس
 في أناة مستأنية ورفق رفيق ، لا تشق عليك ولا على أنفسها بذلك ،
 وإنما تسعى أحاديثها من قبلها إليك عفواً في غير مشقة ولا جهد
 وفي غير تكلف ولا تصنع . وأنت تسمع لها إن شئت وتعرض عنها
 إن أحببت ، وأنت تعقل من أحاديثها ما تفتح له نفسك وينشرح
 له صدرك ، ثم لا تشقى بما لم تسمع منها أو تفهم عنها من الحديث ؛
 لأنها لا تدعوك إلى أن تسمع لها ولا تلح عليك في أن تفهم
 عنها ، وإنما هي قائمة باسمه ، تؤدي رسالتها وتلقى أحاديثها لمن كان
 له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . فهي تحمل إلى الإنسان
 رسالة الإنسان ، وهي تحمل إلى الإنسان رسالة الطبيعة ، وهي
 لا تشق على الإنسان حين تبلغه هذه الرسالة أو تلك ، وهي
 تنتظر ناعمة مشيعة النعمة من حولها ، حتى إذا سعى إليها الذبول
 ومشى فيها الدواء استقبلت الفناء راضية كما استقبلت الحياة
 راضية ، وودعتك بآخر ما ترسل من أرجها وآخر ما تنشر من
 جمالها ، فتركت في نفسك أثراً كالذي تركته في نفس زوجي
 وفي نفسي ، فيه كثير من حب وكثير من رفق وكثير من حنان ،
 وفيه شيء من اكتئاب وشحوب .

وقد فارقنا زهراتنا في السفينة وفيها شيء من حياة. صحبتنا
 أثناء السفر فأحسنّت الصحبة ، ولولا الحياء لأوصينا بها
 أصحاب السفينة خيراً . وكانت إلامتنا قصيرة ، وكان سفرنا إلى
 باريس ميسراً ، وإن عرضت لي فيه خطوب سأعود إليها
 بعد حين .

وأقمنا في باريس ما شاء الله أن نقيم ، وعرضنا فيها لما شاء الله
 أن نعرض له ، وعرض لنا فيها ما شاء الله أن يعرض لنا من الأمر .
 ثم أزف الترحل عن باريس ، ولم يبق بيننا وبين ركوب القطار
 إلا ساعات قليلة ، وقد ودعنا فتانا وأبينا عليه أن يصحبنا إلى
 المحطة ، وألحنا عليه في أن يفرغ لشأنه ويتزود من الراحة قبل
 أن يستقبل امتحانه الشاق العسير .

وينصرف الفتى عنا شجاعاً جلدأً ، ولا يكاد يغلق الباب من
 ورائه حتى تنهل دموع وتشرق حلق وتقطع أصوات في
 الصدور . ثم يقبل الزائرون يتبع بعضهم بعضاً وقد كدنا نتسلى عن
 لوعة الوداع ، ولكن طارقاً يطرق الباب في رفق ، فإذا فتح له سبق
 العبير صوته ، فنحس بأن الفتى قد أبى أن نفرق على هذا الوداع
 الأليم ، فاختار زهرات ، وألقى إليها بذات نفسه وأسرّ إليها

أن تحمل حبه وبره إلى أبويه .

وقد عادت الدموع إلى انهلالها وعادت الحلو إلى شرقها ،
وعادت الأصوات إلى تقطعها في الصدور . ولكن جمال الزهرات
رد إلى النفوس شيئاً من هدوء ، ولكن عبير الزهرات رد إلى
الضمائر كثيراً من أمل ، ولكن نضرة الزهرات ملأت القلوب
حباً وحناناً .

وكانت هذه الزهرات فصاحاً كل الفصاحة مسمعات كل
الإسماع عجالات إلى إلقاء أحاديثها وأداء رسالتها والكشف عن
أسرارها . فهي تتحدث إلينا في غرفة الفندق ، وهي تتحدث إلينا في
السيارة بين الفندق والقطار ، وهي تتحدث إلينا في القطار
ما أمسكتنا اليقظة ، وهي تتحدث إلى أحلامنا حين يستأثر
بنا النوم . وهي تتحدث إلينا في چنوا أيقاظاً ونياماً ، وهي تتحدث
إلينا في السفينة بين چنوا ونابولي أيقاظاً ونياماً كذلك . وهي الآن
وأنا أملى هذا الحديث تنتظرنا في غرفتنا بما بقي فيها من حياة
تبث أحاديثها إلى جو الغرفة وما فيها من أداة ، حتى إذا اشتملها
الدواء تركت من روحها ما يمضي في التحدث إلينا عن فتانا
حتى نبليغ مصر إن شاء الله .

وأشهد إني لأنحنى عليهن بين حين وحين ، فأشمهن وألثمهن
 وأنشدهن قول أبي العلاء لحمائمه :
 إليه لله دركن فأنه ن اللواتي يحسن حفظ الوداد

لم نكد نرقى إلى السفينة بعد أن طوفنا في جنوا ساعات حتى
 ذكرنا أننا لم نرسل البرقية التي كنا نزمع إرسالها إلى القنصلية
 المصرية في مارسيليا . فقد كنا قدرنا أننا سنصل إلى مارسيليا
 حين يوشك النهار أن ينتصف ، واستكثرتنا أن ننفق فيها سائر
 النهار وعامة الليل ، ثم ننفق النهار كله بعد ذلك في القطار
 ونصل إلى باريس حين يتقدم الليل فنقضى في فرنسا يومين
 كاملين لا نرى فيهما الفتى ، وما أشد شوقنا إلى لقائه ! وما
 أشد حرصنا على ألا نزعجه عما هو فيه من استعداد لامتحانه
 العسير .

وكنا قد أصدرنا إليه الأمر من القاهرة ألا يخف للقائنا
 ولا يسعى إلينا إلا حين ندعوه بالتليفون ؛ فليس من شك في
 أنه سيسمع ويطيع . وقد تنازعه نفسه إلى لقاء أبويه ، فلنخف
 عليه مقدمنا إذن ، ولننبئه بمكاننا بعد أن نستقر في فندقنا . من أجل

ذلك أزمعنا أن نخالف عن عادتنا المألوفة فنسافر إلى باريس في قطار الليل لا في قطار النهار كما نحب دائماً أن نفعل .

فليس بد إذن من أن نبرق إلى قنصلنا في مارسيليا ليتفضل فيحجز لنا أماكننا في قطار الليل . وقد أنسينا هذه البرقية لكثرة ما عرض لنا من الأمر في جنوا، وما ألمّ بنفوسنا وقلوبنا من الخواطر والذكريات . فلما ذكرنا هذه البرقية بعد صعودنا إلى السفينة تقدمنا إلى «فريد» أن يحتال في إرسالها . فما أسرع ما هبط إلى الأرض ، وما أسرع ما عاد إلينا ينبئنا بأن البرقية ستصل إلى القنصل بعد دقائق لن تبلغ العشرين !

كذلك قدرنا ، ولكن السفينة وظروف السفر قدرت شيئاً آخر ؛ فلم نبليغ الساعة التاسعة من صباح الغد حتى كانت سيارة قد انتهت بنا إلى محطة مارسيليا وفيها عرفنا أن قطاراً سيسافر منها إلى باريس إذا انتصف النهار . فترسل فريداً إلى القنصل ليعلم لنا علمه ونحن نتمنى فيما بيننا وبين أنفسنا ألا يكون حجز الأماكن في قطار الليل قد يسر له . ونجلس إلى قهوتنا ننتظر عودة فريد ، وما هي إلا ساعة حتى يعود ومعه القنصل يقسم جهد أيمانه أن الرسالة لم تصل إليه إلا بعد أن

لقيه فريد . وهو يعتذر ما وسعه الاعتذار ، ولا يقدر أن تأخر
هذه الرسالة ووصولها بعد مرسلها قد صادف هوى في نفوسنا
وحقق لنا أملاً عزيزاً علينا . وما أقل ما تحقق الآمال في
هذه الحياة !

ونحن نجتهد في أن نحتجز الأماكن في قطار الظهر ،
ندفع إلى المحطة وتدفعنا المحطة إلى كوك . وقد شكرنا للقنصل
جهده ورددناه إلى عمله الكثير ومواعيده الخطيرة سالماً موفوراً
لم يلق كيداً ولم يكلم كلاماً .

ثم لا ينتصف النهار حتى نكون قد أخذنا أماكننا في عربة
من عربات «البولمان» من الدرجة الثانية بعد أن ضاقت بنا عربة
البولمان في الدرجة الأولى .

وقد أخذنا من الأماكن ما أتيح لنا ؛ ففرقت مصادفة القطاز بيني وبين
فريد ، وجلست إلى زوجي نتحدث حيناً ونسكت حيناً ولا نتاح لنا
القراءة ، ثم حمل إلينا غداؤنا ولما فرغنا منه أوينا إلى شيء من راحة .
ولكني لا أكاد أخلو إلى نفسي حتى أذكر ما لقيت من ليلتي
وما كان بيني وبين صديقي ذاك العزيز من حديث غريب ،
وأحاول أن أتمس لذلك الحديث تأويلاً ولكنني أصرف عن ذلك

صرفاً رفيقاً عفيفاً في وقت واحد . فهذا صوت صديقي يبلغ
 أذني عذباً رقيقاً يشيع فيه الحنان ، وهأنذا أفرع لذلك أشد
 الفزع ، وأكاد أتحدث بما أجد إلى زوجي . ولكن يداً رفيقة
 رقيقة تمس كتفي وصوتاً حلواً نفاذاً يقول لي : «لا بأس عليك
 ما الذي يروعك وأنت حديث عهد بي ! ألم أكن أتحدث إليك
 منذ ساعات قصار؟» . قلت «بلى ! ولكنه الحلم فيما قدرت ولست
 الآن نائماً» . قال : «بل هو الحلم فيما قدرت زوجك لا فيما قدرت
 أنت . ولولا أنك تحدثت إلى زوجك بما تحدثت إليك وأنها
 قالت لك ما قالت ، لأنفقت ما شاء الله من الدهر في هذه الدنيا
 لا تشك في أنني لقيتك وتحدثت إليك وسمعت منك وأنت
 يقظان ، ولأخفيت ذلك على الناس مخافة أن يتهموك بالتكذب
 أو أن يظنوا بعقلك الظنون . فالآن فسل نفسك أناأم أنت
 أم يقظ ؟ وتحدث إلى زوجك واسمع منها رجع الحديث ،
 وضع يدك في جيبك فداعب بها سبحتك تلك التي أهداها
 إليك صديقنا فلان . . وأخرج علبة السجائر وأشعل سيجارة .
 ولو قد أتيح للموتى أن يدخنوا لأخذت منك إحدى سجايرك
 هذه ولشاركتك في التدخين ولكن أنى للموتى أن يدخنوا ! وإنما هم

ظلال ليست لهم أيد ولا شفاه ولا حلق . » وأسرعت بيدي إلى جيبى فداعبت سبحتى وأخرجت علبتى وأشعلت سيجارتى وتحدثت إلى زوجى . ولكن يدا رفيقة تمس كتنى وصوتاً حلوا يبلغ أذنى وهو يقول : « أنت إذن يقظ لا نائم ، فاسمع منى وافهم غنى ، واعلم أنى أتحدث إلى قلبك وعقلك جميعاً .

أذكر أثراً طالما تحدثت إليك به ؛ لأننى كثيراً ما سمعته من الشيوخ ؟ قلت : « الأولاد مبخلة مجبنة ؟ » . قال : « هو ذاك ! وقد عرفتنى قبل أن أرزق الولد وأحتمل من أعباء الحياة ما يحتل الآباء ، فهل رأيت منى بخلاً وجبناً ؟ » . قلت : « اللهم كلا ! » . قال : « فإنك لم تنس أنى غاضبت الحكومة فى مستهل الشباب ، وغاضبت السلطان غير مرة بعد ذلك ، ولقيت فى ذلك من لوم الأسرة ما لقيت ، فلم أحفل بلوم ولم ألتفت إلى عتب ، وإنما أديت الواجب كما كنت أعتقد أنه ينبغى أن يؤدي » . قلت : « هذا حق » . قال : « وقد رأيتنى بعد أن رزقت الولد واحتملت من الأعباء ما يحتمل الآباء ، فهل رأيت منى بخلاء ؟ » قلت : « اللهم لا ! » . قال : « فالحمد لله على أن الولد لم يكن لى مبخلة . ولكنك رأيت منى كما رأيت من نفسى جبناً فى غير

موطن من المواطن». قلت: «لم أرجبناً وإنما رأيت تحفظاً واحتياطاً»
قال: «فإن الموتى يحبون أن نسمى الأشياء بأسمائها ؛ فقد رأيت منى
ورأيت أنا من نفسى جبناً فى غير موطن من المواطن وقد
عبرت عنه بهاتين الكلمتين : التحفظ والاحتياط معتدراً عن
نفسى إلى نفسى ومخادعاً لها عن الحق ، فلم يغن هذا عنى شيئاً
وإنما استحييت من نفسى ومن الناس . ولو قد أظهرتك أسرتى
على ما كتبت من المذكرات لرأيت من ذلك ما يرضيك .
وإذن فقد كان الولد مجبنة لى ؛ فأنا أستغفر الله وأرجو أن تستغفر
الله لى من هذا الجبن» . قلت : « فقد غفر الله لك لأنك تبت
من هذا الضعف توبة صادقة نصوحاً» . قال : «لو غفر الله لى لما
وجدت ما أجد إلى الآن من ألم وندم وعذاب يمزق الضمير» .
قلت وقد أسرعته إلى شفتى ابتسامة حاولت أن أخفيها : «يعجبنى
هذا التعبير لتمزيق الضمير» . قال : « ألم أقل لك إن الموتى
يحبون أن تسمى الأشياء بأسمائها ! إنك ترى فى هذا التعبير
مجازاً رائعاً ولكننا نحن نرى فيه حقيقة واقعة . فضاثرنا يمزقها
الندم تمزيقاً ويفرقها الألم اللاذع تفريقاً . والآن وقد تحدثت
إليك عن نفسى أحب أن أتحدث إليك عن نفسك أنت» .

قلت : « وماذا تعلم من أمر نفسي ؟ » قال : « أعلم أنها كئيب ، وأعلم أنها بائسة ، وأعلم أن ألماناً لا ذعاً يقضها ويمضها ، وأعلم أنك تظهر ما تظهر من إشراق الوجه وابتسام الثغر ورشاقة الحديث ، ثم تشد إذا خلوت إلى نفسك بيتاً طالما اشترطنا في الإعجاب به :

وتجلدى للشامتين أريهم
أنى لريب الدهر لا أتضعع »
قلت : « فإني لا أحب أن يقرأ الناس ما في نفسي » . قال :
« هيهات ! تستطيع أن تخفي ذات نفسك على الأحياء ، فأما الذين يعرفونك ويألفونك من الموتى فليس يخفي عليهم من ذات نفسك شيء » .

وهمت أن أتكلم أو بعبارة أدق هممت أن أرد عليه بعقلي لا بلساني ، ولكنه مس كتنى مساً رقيقاً وقال في صوت حلو يشيع فيه الأسى : « لو عرف الأحياء أنهم يؤذون الموتى حين يجزعون أو يفزعون أو يراعون لملكوا أنفسهم ولسخروا من آلام الحياة فإنها أهون من أن تؤدى النفوس ، أوتحزن القلوب . ولكننا نراكم جزعين فرعين مروعين للسير من الأمر ، فنرتى لكم ونشفق عليكم ، ويؤذينا شقاؤكم في ذوات أنفسكم . ليتكم تعلمون أن للموتى

حساً دقيقاً وشعوراً رقيقاً وذوقاً مرهفاً وأن الموت لا يقطع ما بينهم
 وبينكم من الصلات إلا بعد وقت لا نعرف أقصير هو أم
 طويل . ألم تقرأ في الآثار والأخبار أن الميت يعذب ببكاء أهله
 عليه؟ . قلت : « بلى » قال : « فانما يعذب الموقى بحزن أهلهم
 عليهم لكثرة ما يرثون لهم ، ويأسون لما يجدون من حزن . وإن رثاءنا
 لكم وإشفاقنا عليكم حين تحزنون علينا ليعذبنا أضعاف ما يعذبكم
 ما تجدون من ألم الفراق . ليت الأحياء يعلمون أن الموقى إنما
 يتركونهم لخير مما هم فيه ، فلا يشيعوهم بهذا الحزن الممض
 والألم الذى يقض المضاجع وينغص الحياة » . قلت : « فإن الأحياء
 لا يحزنون على الموقى حين يموتون بمقدار ما يحزنون على أنفسهم
 لما يجدون من افتراق الشمل وانقطاع الأسباب بينهم وبين من
 أحبوا » . قال : « ما زلت كما عهدتك مستقصياً متعمقاً غالباً
 فى التحليل والتعليل ، والأمر مع ذلك أيسر مما تظن . فليكن حزنكم
 علينا أو على أنفسكم ، فإن هذا الحزن يؤذينا دائماً أشد الإيذاء
 وأوجعه . ولقد شهدت أسرتى ثم شهدت أصدقائى بعد أن فارقت
 داركم الدنيا ، ثم رأيت بكاء الباكين ونحيب المنتحبين ، ثم رأيت
 اللوعة التى تكتم فى الصدور والحسرة التى تضر فى القلوب

والدموع التي تمسك في الجفون ، فما أعرف أنى لقيت قط
من الألم أثناء حياتي كلها مثل ما لقيت في تلك الليلة ثم في
ذلك اليوم من بعدها». قلت : «ولن يؤلمك الحزن المناق واللوعة
الكاذبة والخسرة التي تظهر في الوجوه دون أن يكون وراءها
شيء». قال : «هيات ! إن الموتى ليصفحون عن كثير . ولقد
تعلمت في الحياة من الصفح عن المنافقين والإغضاء عما يتكلفون
من الرياء والكذب ما أنت في حاجة إلى أن تتعلمه . ولو قد
تعلمته لأرحت نفسك من عناء كثير . إن المنافق إنما يؤذى
نفسه أكثر مما يؤذيكَ . فلو أنصفت لرحمته وأشفقت عليه . أظن
أنه من الهين أن يكذب الإنسان على نفسه في كل قول يقوله ،
وفي كل عمل يعمله ، وفي كل خفقة من خفقات قلبه ، وفي كل
خلجة من خلجات نفسه ، يفرج قلبه ووجهه كتيب ، ويحزن
قلبه ووجهه مبتهج . يقول ونفسه تنكر ما يقول ويعتقد ولسانه
ينكر ما يعتقد . وكل ذلك يكتب له ويحصى عليه ، حتى إذا
خلا إلى نفسه مزقه الندم إن كان له ضمير ، فإن لم يكن له
ضمير فخلوته إلى نفسه نفاق كما أن لقاءه لغيره نفاق ؛ فهو
منافق مع نفسه ، منافق مع الناس ؛ حتى إذا فارق الدنيا عرضت

عليه من نفاقه صور يا لها من صور ! لا تستطيع عقول الأحياء أن تتصورها ، ولا تستطيع قلوبهم أن تصبر لها ، ولا تستطيع لغاتهم أن تصفها . وإني لأرى بعض الأشقياء من الذين أسعدهم النفاق في حياتهم الأولى فأتمنى لهم عطفاً عليهم وبراً بهم أنهم لم يخلقوا .

لا تبتئس إذن لنفاق المنافقين ، ولكن ارحمهم وارث لهم وتمنّ أن يتوب الله عليهم في حياتهم قبل أن يموتوا فيصبح أملهم في التوبة أوهن من نسج العنكبوت . ولنعد إليك وإلى هذا البيت الذي تنشده كلما خلوت إلى نفسك حين يلم بك بعض ما تكره من الأمر ، فتظهر الرضا وتضمّر السخط وتعلن الابتهاج وتسر الاكتئاب . فهل علمت أن أشمت الناس بالإنسان إنما هي نفسه الخفية التي لا يظهر عليها أحد ، وأن الإنسان خليق أن يتجلّد فيما بينه وبين نفسه قبل أن يتجلّد فيما بينه وبين الناس ؟ وما يعينك أن يظن الناس بك الظنون ويقولوا فيك الأقاويل إذا عرفت نفسك وعرفتك نفسك ، فلم تنكرها إذا خلوت إليها ، ولم تنكرك إذا خلّت إليك ! . إن شماتة نفس المرء به هي أصل الشر ومصدر الداء والطريق إلى كل موبقة من الأمر . إن المكروه يلم بك

فتجزع له وتضيق به وتتكلف للناس صبراً وجلداً ، ولكنك قد ضعفت في دخيلة ضميرك فلم تخف الجزع على نفسك ، وإذا هي تنظر إليك ساخرة ، ثم تنظر إليك مشفقة ، ثم تنظر إليك مضلة ، ثم تنظر إليك محاولة أن تسليك وتلهيك ، وإذا هي تلمس لك المعاذير الكاذبة والتعلات الباطلة لتسليك عما تجد من الحزن ، وتحط عنك ما يثقلك من الإصر . ثم لا تلبث أن تغريك بالتماس التسلية والتلهية لتنسى ألمك وتخفف من همك ، فتفتح لك أبواباً من الشر وتمهد لك طرقاً إلى الإثم . ثم ما تزال تدفعك من باب إلى باب ومن طريق إلى طريق حتى تنسيك ما كان يثقلك من الحزن والألم ، ولكن بعد أن تكون ورطتك في آلام وآثام أشد ثقلاً وأعظم نكراً مما كنت فيه . ولو قد لقيت المكروه شجاعاً جليداً أمام نفسك ، غير حافل بما يظن الناس وما يقولون وغير خارج عن طورك ولا مغير لسيرتك فيما بينك وبين ضميرك ، لاحتفظت بمروءتك كاملة برجولة موفورة ، ولجنبت ضميرك كثيراً من هذا الدنس الذي لا يليق بكرام الناس . »

قلت : « لقد أصبحت بعدى فيلسوفاً » . قال وهو يتسم :

« إن الموت يعلم الفلسفة لكثير من الأحياء فما له لا يعلم الفلسفة لقليل من الموتى ! » .

وأقبل فريد ينبئني بأن في العربدة مكانين خاليين ساعة وبعض ساعة ، وأنه يستطيع أن يقرأ لى بعض ما حمل من الصحف والمجلات ، فأتأقل . ولكن صديقى يقول لى : « لا بأس ! استمع لما سيقراء عليك فريد أو لا تستمع له ولكن لا ترده خائباً ؛ فإنه يلتمس هذه الفرصة منذ ركبتم القطار . إنه يعرف حرصك على القراءة ، ويريد أن يمنحك منها أكثر ما يستطيع أو أكثر مما تطيق . »

فأنتقل مع فريد وإذا هو ينشر صحفه ومجلاته ويقرأ ما شاء الله أن يقرأ متنقلا بين الأدب والسياسة والفن ، وأنا أمنحه أذنى وأصرف عنه نفسى ؛ فقد مضيت فى أحاديثى مع صديقى لا أكل أنا ولا يمل هو ، وفريد يقرأ ويقرأ . حتى إذا دنا القطار من ليون عدت إلى مكائى . ويسألنى فريد عن بعض ما قرأ لى ، فأبتهس . وأقول له فى صوت يكسره الحياء : لقد نمت عنك وعمما قرأت أكثر هذا الوقت . وصديقى يشهد ما نمت عن فريد ولا عما قرأ ، وإنما شغلت بحديثه عن فريد وعمما قرأ .

وقد اتصل الحديث بيني وبين صديقي فنوناً وألواناً، قليل منها يمكن أن يقال، وأكثرها ينبغي أن ينطوى عليه الضمير .

وأقبل الخادم يحمل إلينا عشاءنا، وأقبلت على طعامي وعلى حديث زوجي غير منصرف مع ذلك عن هذا الصديق العزيز لحظة، وإنما هي الحياة المزدوجة التي أحيانا في كثير من الأحيان، أمنح جلسائي نصف نفسي وأمنح نصفها الآخر لجلساء آخرين أعرفهم أنا ولا يعرفهم الناس ، أقول لهم وأسمع منهم وأبادلهم ضروب الحوار والناس يحسبونني معهم قد منحتهم عنايتي كلها كما منحوني عنايتهم كلها . وهل في الحق أن أحداً من الناس يمنح أحداً من الناس عنايته كلها إلا في أقل الأوقات وأشدّها ندرة وأقلها تجددًا !

ويبلغ القطار باريس آخر الأمر ، وقد هم الليل أن يتتصف ونهض لنهبط إلى الأرض ، وإذا صديقي يقول لي مداعباً : « أتذكر صديقنا ذاك الذي عاد إلى باريس لأول مرة بعد أن أتمّ الدرس فيها وقضى في مصر عاماً أو عامين ، فلما بلغ هذه المحطة لم يكديطاً أرضها بقدميه حتى انكب عليها فقبلها بشفتيه ؟ ! » قلت : « يرحمه الله ويرحمك ! » . قال : « فإني سألقاه في باريس .

فالأَسباب لم تقطع بينه وبين الحياة الدنيا بعد ، وهو يؤثر باريس ميثاً كما كان يؤثرها حياً .

وزوجى تلح علىّ فى أن أسرع فى الخطو حتى لا نعوق من وراءنا من الناس . ولكن صديقى يقول لى فى صوته الهادئ الحلو : « لا تعجل فليس فى العجلة خير ، انتظر حتى نضرب للقاء موعداً . أتذكر الكلوزيرى دى ليلا ؟ » . قلت : وكيف لا أذكرها ! قال : « أسنلتنى فيها أثناء زيارتك المقبلة لباريس إن شاء الله ، وسيشهدنا الخادم الذى كان يتلقانا معنا بنا . أتعرف أنه قد مات ؟ » قالت زوجى : قد بلغنا السلم ، فاستأن حتى أبلغ الأرض وأمنحك يدى . قال صديقى : « موفقاً إن شاء الله فى سفرك وإقامتك » .

وأبلغ الأرض أسعى مع زوجى مثاقلاً أقول لها : أليس غريباً أن نكون فى باريس والفتى لا يعلم أين نحن ؟ وتهتم أن تجيب ، ولكننا نسمع صوت الفتى مرتعشاً يقول : يا حبيبى . ثم يلتقى بنفسه بين أذرع أربع ثم تكون قبل تؤدى كثيراً من المعانى والألسنة معقودة والقلوب واجفة . ثم أقول للفتى ونحن نسعى : كيف عرفت أننا فى هذا القطار ؟ قال سألت عنكما

في الفندق فأنبئت بمقدمكما ، لا شوقاً إليكما بل رفقاً بكما ؛
فليس لكما في الفندق مكان ، وقد احتجز لكما أصحابه غرفة في
فندق آخر تقضيان فيه الليل ، فاتبعاني أصحابكما إليه .

سنستجيب لهذه الدعوة ما في ذلك شك . قلت ذلك وأنا
أعجب فيما بيني وبين نفسي لهذه الدعوة التي كانت تنتظر
في باريس دون أن يعلم الذين أرسلوها إلينا أننا قادمون إلى
باريس . أعجب لذلك بعد أن أنفقت يومين متحدثاً إلى
صديقي ذاك الذي فارق الحياة . فلا أكاد أودعه عند سلم
القطار حتى أعلم بعد قليل أن جماعة أصدقاء چان زى قد
أرسلت إلى الفتى دعوة للأسرة كلها ترجو فيها أن نشهد الحفل
الذي سيقام في السوربون لوداع چان زى . وقد كان چان
زى وزيراً للتربية الوطنية في فرنسا أعواماً متصلة قبل الحرب ،
وزار مصر سنة ١٩٣٨ وعرفته في القاهرة واستقبلته في الجامعة
وكنتم عميداً لكلية الآداب . ثم اتصلت بينه وبينى أسباب
من المعرفة لا تبلغ الصداقة ، ولكنها على ذلك ليست بتلك المعرفة
العابرة التي لا يكثر لها المتعارفون . وقد لقينته في فرنسا سنة ١٩٣٩

لقاء قصيراً أحسست فيه إلحاحاً في العناية بي قلما يظهره الساسة الفرنسيون لأجنبي زائر لباريس . ثم كانت الحرب وعدت إلى مصر وشغلت عن چان زى ، وإن كنت قد أعجبت به حين قرأت في الصحف أنه استقال من الوزارة ليؤدى واجبه الوطنى فى ميدان القتال . وأملت الكارثة بفرنسا وكان الانقلاب السياسى ، فشرد أنصار الجمهورية وقبض على زعمائهم ، وكان من الذين قبض عليهم هذا الوزير الشاب .

ثم انجلت الغمرة عن فرنسا ، وعلم الناس أن چان زى قد شقى فى سجنه حتى أوشكت الحرب أن تنتهى . ثم أقبل الجند عليه ذات يوم فأخرجوه من السجن وأنبأوه أن الحرية سترد عليه وأركبوه سيارة ومضوا به ، حتى إذا كانوا فى بعض الطريق قتلوه ومضوا لوجههم لا يلوون على شىء .

ثم أذهب إلى فرنسا سنة ١٩٤٦ فالتقى بعض الأصدقاء من الفرنسيين وأعرف منهم أن صلاة ستقام فى معبد من معابد البروتستنت فى باريس احتفالاً بذكرى چان زى ، وأن الأسرة والأصدقاء سيقع من أنفسهم موقعاً حسناً أن يرونى فى هذا الحفل ، فقد كان الفقيه يضمّر لى مودة وتقديراً . فنشهد

الحفل لا عن مجاملة فحسب ، ولكن عن وفاء فيه كثير من الإعجاب .

ولا يكاد الصيف ينتهى فى ذلك العام حتى تهدى إلى جماعة أصدقاء چان زى كتابه الذى أنشأه فى السجن . فأقرأ كتاباً من أروع ما يكتب الكتاب ويقرأ القراء ، فيه مراجعة للنفس ومحاسبة للضمير واستحضار للماضى وأمل فى المستقبل وإيمان بمصير الوطن . وفيه صبر على المكروه واحتمال للخطب وشجاعة على النوائب وثبات على الرأى وإباء للضمير ورفض للترغيب والترهيب واستخفاف بظلم الظالمين واستبداد المستبدين وسخر من غرور المتسلطين وطغيان المتجبرين . وفيه مع هذا كله وفاء للزوج أى وفاء ورحمة للولد أى رحمة وحب للأصدقاء أى حب . وفيه تحليل كأدق ما يكون التحليل لعواطف القلب وخواطر العقل وخلجات النفس وعكوف الضمير على نفسه واتصال الضمير بالضمير . وفيه استعراض لآماله قبل أن يكون وزيراً ولأعماله ، وما أكثر أعماله وأقومها حين كان وزيراً ، ونقد لأعمال الذين جاءوا بعده من أعوان العدو وأنصار الاحتلال والدعاة إلى التعاون مع المحتلين ؛ وأحلام عذاب بما سيستأنف من النشاط

حين يوضع عنه الإصر وتحط عنه الأغلال وترد عليه الحرية ويعود إلى أهله ووطنه سالماً موفوراً . وفيه وصف أى وصف لظلمة السجن التى تتصل فى الليل والنهار ، والتى لا تحد آفاق الأبصار وحدها ، وإنما تحد آفاق الضمائر والعقول أيضاً ؛ ووصف لما كان ضميره يبذل من حيلة وجهد ليرسل من أعماقه نوراً ضئيلاً يبدد هذه الظلمة بعض التبييد . فمن مداعبة للأمل إلى ملاعبة للحلم ، إلى مخادعة للنفس : إلى محاسنة لحراس السجن ، إلى مخاشنة لمدير السجن ومثلى السلطان ، إلى رياضة فى الغرفة الضيقة حين تغلق عليه أبوابها ، إلى رياضة فى الفناء الواسع حين يتاح له السعى فيه ، إلى استثمار لقطعة صغيرة ضيقة من الأرض ينفق الجهد كل الجهد فى حملها على أن تخرج من النبات والبقل ما يتيح لعينه بهجة ولنفسه رضا ويرفه عليه فى حياته المادية بعض الترفيه . وفيه بعد هذا كله ذكر لتطوافه فى الأرض وسياحته فى البلاد . وقد ذكر مصر بين البلاد التى ذكرها ، وذكر بالخير نفراً من المصريين كنت من بينهم ؛ فعرفت أن ما كان بينى وبينه من الصلة لم يكن عابراً ، وأن عنابته بى لم تكن صادرة عن عفو الخاطر . وأثر فى نفسى أشد التأثير أن

يكون لحياقي الضئيلة في نفسه الكبيرة بعض الأصدقاء .

وأعود إلى فرنسا من قابل فأدعى إلى حفل يقام في السوربون
 لذكره الثانية ، فأشهد هذا الحفل وأسمع ما أشاء الله أن أسمع
 فيه من أحاديث الساسة والأدباء الفرنسيين وغير الفرنسيين .
 وقد تعجلت السفر إلى فرنسا هذا العام ولم يكن يخطر لي أن
 سأكون منه على ميعاد في هذه الإمامة القصيرة التي ألمتها
 بباريس . ولكني لا أكاد أبلغ باريس حتى أجد هذه الدعوة وحتى
 أشعر بأن لي مع الأصدقاء الموقى شأنًا في هذا العام . فأسعى
 إلى الحفل مصباحاً ، وأرى صحن السوربون قد اكتظ بالساسة
 والأدباء من الفرنسيين ، وأعلم أن جثة جان زى قد أنفقت الليل
 مع شهداء الجامعة في مقبرة الكنيسة التي تجاور السوربون .
 فلما أصبحت أخرجت إلى الأصدقاء والمحبين والمؤمنين بالحرية
 ومقاومة الظلم والمنكرين لبغى البغاة وطغيان الطغاة تسمع منهم
 وتقول لهم . وقد سمعت منهم كثيراً وقالت لهم أكثر مما سمعت .
 تحدث إليها وزير الحرية الوطنية كما يتحدث الناس إلى
 الناس ، وتحدثت إليها فرنسا كلها بقلوب ممثليها وبالموسيقى
 كما تتحدث الأم العطوف الرعوم إلى ابنها البر الوفي .

وقد استمع الناس للناس وهم يتحدثون، واستمع الناس لقلوبهم وهي تتحدث، واستمع الناس لهذا الرفات الضئيل وهو يتحدث إلى القلوب والعقول أبلغ الحديث وأعمقه أثراً. وكان الناس يحتفظون في أثناء هذا كله بما ينبغي لهم من الوقار والتجمل والاحتشام. ولكن قوماً أقبلوا يحملون النعش ولا يكادون يلمسونه بأيديهم حتى تندفع موسيقى الحرس الجمهوري فتعزف نشيد المقاومة :

« أيها الصديق أسمع للغربان تطير طيرانها الأسود فوق سهولنا ! أيها الصديق أسمع هذه الصيحة المكظومة التي يدفعها الوطن وهو يسلك في الأغلال . . . »

هنالك تخرج النفوس عن أطوارها، وتتخفف من التجلد والتجمل والاحتشام، وتطلق الدموع حريتها فتنسجم على الوجوه في غير تردد ولا توقف، ولا يبقى أحد من شهود الحفل إلا اندست يده في جيبه ثم خرجت وفيها منديل يكفكف به دموعاً لا تريد أن تكف. وكذلك خرج چان زى من السوربون تودعه القلوب وتشيعه الدموع، وتختصر موسيقى الحرس الجمهوري أروع اختصار وأبلغه ما يكون من الحديث بين الأموات والأحياء، وما

يكون من الحديث بين الأوطان والمواطنين مهما تختلف العصور
والظروف والأطوار .

وأعود إلى الفندق وقد رضيت عن هذا الحزن الذي أغنى قلبي
ونقى نفسي ، وعن هذه الدموع التي غسلت ضميري مما تعلق
به من صلاته بالأحياء . وأشعر أني سأستقبل ما زرت باريس
من أجله من العمل « جَدَّعَ البصيرة قارح الإقدام » ، كما يقول
الشاعر العربي القديم .

٧

ولكن الحياة في باريس عناء وغناء، لا ينقطع ما تفرض عليك من الجهد ، ولا ما تثير في نفسك من المتاع . ولست أتحدث عما في باريس من مشقة مادية أو لهو مادي ؛ فلى والحمد لله ضدوف عن هذا اللهو ، ولى والحمد لله من بريحي من مشقة الحياة المادية . وإنما أتحدث عن العناء والغناء اللذين يتصلان بالقلب والعقل والذوق ، فهما لا ينقطعان منذ تصل إلى باريس إلى أن تفارقها . وأكبر الظن أنهما يصحبانك بعد فراقها ؛ لأنك لا تتركها إلا وقد تزودت بالشئ الكثير مما يثير الألم ويذكي اللوعة ، ومما تعلق به الآمال وتحيا به القلوب . لا تكاد تنظر في الصحف إذا أصبحت حتى ترى فيها ما يدعوك إلى المعرفة ويغريك بالعلم ويحثك على الاستقصاء . ودع السياسة لأصحاب السياسة أو ألم بالسياسة إماماً رفيقاً لتعرف ما يحدث في فرنسا وما يحدث في أقطار الأرض ؛ فليس للرجل المثقف عن ذلك غنى .

ولكنك سترى في الصحيفة التي تنظر فيها ما يدعوك ويغريك ويلح عليك : فهذا نقد لكتاب لا تكاد تنظر فيه حتى تشعر بالحاجة الملحة إلى قراءة هذا الكتاب . وهذا نقد لقصة تمثيلية لا تكاد تنظر فيه حتى تشعر بالحاجة الملحة إلى شهود هذه القصة . وهذا دعاء إلى حفل موسيقي ، وهذا دعاء إلى معرض من معارض الفن ، وهذا عرض لنظرية من نظريات العلم أو لمسألة من مسائل الأدب أو لخصومة من خصومات الفن . وأنت لا تفرغ من صحيفة أو صحيفتين إذا أصبحت حتى ترى نفسك طائراً بين ما ينبغي أن تقرأ وما ينبغي أن تشهد وما ينبغي أن تسمع وما ينبغي أن ترى . وأنت تستشير وقتك فاذا هو يضيق أشد الضيق بكل ما تحب . فلا بد لك إذن من أن تختار وما أعسر الاختيار ! ولا بد لك من أن تلغى وما أشق الإلغاء ! وأنت تستشير جيبك فيما ينبغي أن تشتري من الكتب وفيما ينبغي أن تشهد من التمثيل وتسمع من الموسيقى ؛ فإذا هو يقصر عن إسعافك لبلوغ كل ما تحب . فلا بد من أن تختار ولا بد من أن تلغى ، وما أشق الاختيار والإلغاء جميعاً ! . وقد تخادع نفسك فتسجل كل ما تحب في دفتر من دفاترك تعجل بعضه وتؤجل بعضه

الآخر إلى أن يتاح لك الوقت ويسعفك المال ؛ وتعلق أملك
 بأن الوقت سيتيح لك ما تشتهي ، وبأن تدبير المال سيبلغك
 ما تحب . ولكنك لا تكاد تسمى وتنظر في صحف المساء حتى
 ينهار ما بنيت وتنقش آمالك هباء كما تتبدد سحب الصيف ؛ فقد
 أضيفت كتب إلى كتب ، وأضيف تمثيل إلى تمثيل ، وازدادت
 أنت حيرة إلى حيرة وعجز إلى عجز فاستسلمت للقضاء ،
 وأخذت من لذة المعرفة والذوق ما أتاح لك وقتك ومالك ، وجعلت
 تخادع نفسك بآمال تعلم حق العلم أنها كاذبة خائنة لا تغني
 عنك شيئاً ، ولكنك تتمثل على رغمتك قول الشاعر القديم :

* ما أضيّق العيش لولا فسحة الأمل *

فهذا عناء لا يخلص منه الرجل المستبصر منذ يبلغ باريس
 إلى أن يفارقها . أمامه متاع كثير أكثر مما يطيق ، وهو مع ذلك
 شره يريد أن يلتهم كل شيء ، فلا يأخذ مما أمامه إلا بمقدار
 مهما يعظم فهو ضئيل . ولكن هذا المقدار الضئيل يشغل
 قلبك وعقلك وذوقك ، ويتيح لك من اللذة العليا ما يجب إليك
 الحياة ويبغضها إليك في الوقت نفسه : يجب إليك الحياة
 لأنه حلو رائع . ويبغض إليك الحياة لأنه يشعرك شعوراً مرّاً

مضاً ؛ لأنك أضيق باعاً وأقصر ذراعاً من أن تبلغ نفسك حاجتها
من هذا المتاع النقي الرفيع .

وأنت تقيم في باريس ما شاء الله أن تقيم مقسماً بين هذا
الفرح والحزن ، موزعاً بين هذا الإقدام الذى يبلغ التهور والإحجام
الذى يبلغ الجبن . تريد أن تحيط بكل شئ وتقتصر عن أن
تحيط إلا بالقليل . فأنت فرح محزون ، وأنت راض ساخط ،
وأنت باسم عابس ، وأنت مقبل صادف ، وأنت من هذا كله
في عناء ؛ حتى إذا تركت باريس لم تفصل عنها بقلبك كله
ولا بعقلك كله ، وإنما تركت فيها من قلبك وعقلك شطراً قد
تعلق بهذه اللذات المتصلة الرائعة التى فرضت عليك الحياة
وظروفها أن تفارقها على كره منك . وأنت مع ذلك قد جمعت
في باريس ما أتيح لك جمعه من الكتب ، لم تستطع أن تقرأه
أثناء الإقامة ، فأجلت قراءته إلى وقت السفر وإلى ما بعد السفر
حين تؤوب إلى وطنك مسروراً أو محزوناً ، فتزيد بقراءته سرورك
وتسلى بها عن حزنك . وأنت تقرأ مسافراً ما وسعتك القراءة ، فتنعم
وتبتس وتبهج وتكتب ؛ حتى إذا بلغت أرض الوطن العزيز
لم تكد تستقر حتى يسعى إليك الساعون وتسعى أنت إلى الذين

سعوا إليك، ويأخذك سنف الحياة اليومية من جميع أقطارك، وإذا أنت لا تجد الوقت للاستمتاع بما حملت من الكنوز إلا أن تسترقه استراقاً وتختلسه اختلاساً وتشق على نفسك بما تطيق وما لا تطيق. ومع أنى أعرف هذا كله لكثرة ما ألمت بباريس وما زلت عنها، فإنى حديث عهد بهذا كله كلما زرت باريس وكلما رجعت إلى مصر. لا أكاد أبلغ باريس حتى أستقصى ما فيها من ألوان المتاع العقلى، فأسعد وأشقى، وأجد فى هذا التردد بين السعادة والشقاء لذة توشك أن تكون مردولة؛ لأنى أقارف هذا الإثم وأنا أعلم حق العلم أنى أحاول ما لا سبيل إليه، وأنى أجد نشاطاً قد علمت ألف مرة ومرة أنه لن يغنى عنى شيئاً ولن يعود علىّ إلا بالألم والشقاء.

كل هذا وقد ألغيت أعباء الحياة الاجتماعية فى باريس إلغاء، فلم أذكر زيارة من يجب أن أزوره ولا استقبال من يجب أن أستقبله، ولا ضيقى بالزيارة والاستقبال لكثرة ما يفرضان علىّ من الحرمان. وأنا مع ذلك رجل من الناس يجب أن أعيش كما يعيش الناس: يجب أن أزور وأن أزار، وأن أقول للمزورين والزائرين وأسمع منهم، وأشاركهم مخلصاً أو غير مخلص فيما

يضطربون فيه من الأمور وفيما يخوضون فيه من الأحاديث .
وقد أعمل الحيلة وأبذل الجهد وأتكلف فنوناً من الخداع حتى
أظفر بالساعات أختلسها من الحياة الاجتماعية اختلاساً ، فأترك
زوجي تقوم عني بما تستطيع أن تقوم به ، وأتقدم إلى الفندق
في أن يكف عني الزائرين والسائلين ، وأخلو إلى صاحبي أو إلى
هذا الكتاب أو ذاك وهذه المجلة أو تلك فأنسى الدنيا وأهلها
وأريح الناس وأستريح منهم ، وأحيا هذه الحياة الممتازة التي أخلص
فيها للمعرفة . ولكني لا ألبث أن أرى هذه الساعات تنقضي
مسرعة وقد أصبت فيها بعض ما كنت أتمنى ، وحيل بيني وبين
خير ما كنت أتمنى ، وإذا أنا أشبه بمن نعم أثناء النوم بحلم
لذيد ثم انقطع عليه حلمه فجاءة ، فأفاق وفي نفسه على هذا
الحلم حسرات . ولم تتح لي هذه الساعات الحلوة في هذه الرحلة
القصيرة إلا مرة واحدة : كان ذلك في يوم من أيام الأحد بذلت
في صباحه ما شاء الله أن أبذل من سعة الحيلة وبراعة التصرف
حتى استخلصت لنفسي نصف النهار .

ثم أسأل صاحبي أفارغ هو لي فيما استخلصت من الوقت ؟
فيذا هو قد رتب أمره على أن يفرغ لنفسه ولبعض أصحابه ، وقد

قدر أنى سأشغل فى هذا اليوم كما تعودت أن أشغل فى أيام
 الآحاد . ولكنى أتكلف الحيلة حتى على صاحبى ، فأظهر له شيئاً
 من يسر وأغريه بأن يستمتع بحريته كاملة ، وألقى إليه فى شىء من
 الاستخفاء واللباقة أنى لا أكره أن أدخلو إلى نفسى ساعات .
 ولكنه قد فهم عنى وأظهر الغباء ، وهو يتكلف كما أتكلف
 ويتخفف من مشاغله كما تخففت من مشاغلى ، يكره أن أدخلو
 إلى نفسى كما أكره أنا أدخلو إلى نفسى : وماذا عسى أن
 تصنع وحيداً إن أقبل زائر أو سأل سائل أو تحدث متحدث فى
 التليفون ؟ فإذا زعمت له أنى سأقدم إلى الفندق فى إراحتى من
 الزائرين والسائلين والمتحدثين قال : وماذا تصنع ان عرض لك
 ما لا تقدر أن يعرض لك أو احتجت إلى بعض الأمر؟ ثم
 ينتهى هذا الحوار إلى أن يعرض على صاحبى أن يبقى منى
 غير بعيد يخلو إلى نفسه كما أدخلو إلى نفسى ، فإذا احتجت
 إليه دعوته . وهنالك يستبين له ولى كل شىء ، يفهم عنى وأفهم
 عنه فى هذه الصراحة الصامتة التى لا تحب أن تعلن نفسها
 باللفظ . ولا نكاد نفرغ من الغداء حتى أرانا قد خلونا إلى
 أنفسنا : صاحبى وكتابه أو مجلته وأنا .

وكذلك رأيتنا في ذلك اليوم وقد خلونا إلى مجلة من المجلات منذ انتصفت الساعة الثالثة إلى أن تقضت الساعة الثامنة ، لم نتركها حتى كدنا نأتى على كل ما فيها . ولكن الحياة الاجتماعية أقبلت علينا مع تمام الساعة الثامنة ، فانصرفنا عن هذه المجلة ولم نعد إليها على كثرة ما فكرنا في العودة إليها . وأكبر الظن أننا لن نعود إليها ؛ فقد ظهرت مجلات أخرى ليست أقل منها خصباً ولا إمتاعاً ، وسيشغلنا ما يقبل عما يمضى . وكذلك الحياة : ساعات تقبل بما فيها من الأحداث فتشغل عن ساعات تمضى بما فيها من الأحداث ، وتبقى في النفس من هذه وتلك أطراف تشير فيها كثيراً من حزن وقليل من سرور .

٨

ولم أَلَمْ بباريس في هذه المرة مستمتعاً بها أو ملتصقاً لما
يلتمس فيها من الراحة واللذة والفراغ ، وإنما أقبلت عليها لبعض
العمل . وكان هذا العمل متصلاً شاقاً يستغرق كثيراً من الوقت
في الصباح والمساء ، كما كان الغدو إليه والرواح عنه يستغرقان
كثيراً من الوقت . فكنت على هذه السن المتقدمة أشبه بالتلميذ
الذي يغدو على مدرسته مصباحاً وينصرف عنها بعد أن ينتصف
النهار ، ثم يعود إليها بعد الغداء لينصرف عنها إذا أقبل الليل .
وكان رئيس اللجنة التي كنت أعمل فيها دقيقاً متحرّجاً ،
يدبر أمر زملائه وعملهم كما يدبر الأستاذ أمر تلاميذه وعملهم .
فكان يحرص على أن يبدأ العمل في الموعد المضروب لبدئه وعلى
أن ينتهي في الموعد المضروب لانتهائه . ولو كان في مصر لاتخذ
لبداء العمل وانتهائه جرساً ينبه إلى البدء والانتهاء . وقد أضيف
هذا العمل المعقد المتصل إلى أعباء الحياة الاجتماعية في باريس

وإلى مشقة الانتقال وعسر الظفر بالسيارات حين نحتاج إليها ، فلم يترك لى من الفراغ ما يتيح لى قراءة الصحف واستقصاء ما فيها من الدراسات والبحوث ، ولكنى مع ذلك لم أفقد الوسيلة إلى العلم ببعض ما يصدر من الكتب والتقدم إلى صاحبي فى شرائه لعلنا نستطيع أن نقرأه فى يوم من الأيام . ولم أعدم الوسيلة إلى شهود بعض التمثيل أستريح إليه من جهد النهار . وشهود التمثيل فى باريس ظاهرة من الظواهر الخاصة التى لا تكاد تلاحظ فى غيرها من المدن الكبرى ؛ فليس يكفى أن تشتاق إلى أن تشهد هذه القصة أو تلك فى هذا الملعب أو ذاك لتظفر بما تريد . وإنما أنت مضطر إلى أن تحتال وتحتاط وتحسن السعى حتى تشهد ما تريد أن تشهد من القصص . فالملاعب فى باريس كثيرة جدا مختلفة جدا متميزة فى مذاهبها وأغراضها وألوان ما تعرض على النظارة من القصص ، ولكنها على ذلك كله مكتظة دائماً ، يستبق الناس إلى احتجاز أماكنهم فيها كما يستبقون إلى احتجاز أماكنهم فى القطارات والسفن والطائرات . ولعلمهم أن يجدوا من المشقة فى استبقاهم إلى شهود التمثيل أكثر مما يجدون من المشقة فى استبقاهم إلى وسائل الانتقال .

وأعرف جماعة من المقيمين في باريس من الأجانب
والفرنسيين كانوا يحسدوننا أشد الحسد ؛ لأننا شهدنا قصة تمثيلية
من قصص مولير ، وحاولوا هم أن يشهدوها فلم يجدوا إلى ذلك
سيلاً . فأما نحن فقد شهدناها في مصر ؛ لأن فرقة جوفيه حملتها
إلينا وعرضتها علينا فيما عرضت من مسرحياتها في الأوبرا
الملكية . والباريسيون نظارة كلهم ، قد أصبح شهود التمثيل
جزءاً مقوماً لطبيعتهم ، حتى أصبحوا وكأنهم يرون الحياة كلها
مسرحية تعرض عليهم حين يصبحون وحين يمسون وحين يغدون
وحين يروحون . وأيسر شيء يحدث في شارع من الشوارع أو
زقاق من الأزقة يدعوهم إلى التجمع والتطلع والاستشراق ،
ثم إلى تبادل الرأي وتجاذب الأحاديث وإرسال النكت كأنهم
في ملعب من ملاعب التمثيل . وقد أصبح من طبيعة الفرنسيين
والباريسيين منهم خاصة إذا التقوا وفرغوا من الحديث عن الجو ،
أن يستأنفوا الحديث عما شهدوا في ملاعب التمثيل أو دور
السينما ، وأن ينقدوا اللاعبين واللاعبات نقداً مفصلاً لا آخر له ،
يتناول فهم وسنهم وأشكالهم وأزياءهم إلى آخر هذه الأحاديث
التي لا تنقضي .

على أن هناك قصصاً تمثيلية تثير ألواناً من النقد لها خطرها، بعضها يتصل بالسياسة فيختصم فيه الناس كما يختصمون في السياسة، وبعضها يتصل بالأدب فيختصم فيه الأدباء دون غيرهم من الناس، وبعضها يتصل بالأدب والسياسة جميعاً. وقد شهدت قصتين مشيرتين للخصومة السياسية : إحداهما تعرض في بيت مولير وقد أنشئت حين تقدم القديس الماضي قليلاً بعد أن انهزمت الثورة وانهارت الإمبراطورية وعاد إلى فرنسا نظامها الملكي مع شيء من التطور، وعنوانها «الإسبانيون في الدانمرك». وهى قصة متقنة للكاتب الفرنسى الكبير ميريمه، يعرض فيها مقاومة الإسبانيين خارج وطنهم لنابليون. وتمثيلها رائع ما فى ذلك شك. ولذلك يعجب به الناس على اختلاف ألوانهم السياسية، ولكنهم بعد ذلك يختصمون اختصاماً شديداً فى هذه القصة التى عمرت قرناً وربع قرن : يرى بعضهم وهم المعتدلون أن بيت مولير قد أخطأه الذوق أو قد أخطأ هو الذوق حين عرض هذه القصة؛ لأنها تصور انهزام الفرنسيين وشماتة الأوربيين بفرنسا. ويرى الشيوعيون ومن لف لفهم من المتطرفين أن بيت مولير قد وفق التوفيق كله حين عرض هذه القصة فى هذه الأيام؛ لأنها تصور

انهزام الاستبداد وإخفاق العدوان وانتصار الحرية . وهم فيما يقولون يكرهون الظلم والاستبداد وإن كانت فرنسا هى الظلمة المستبدة ، ويحبون الحرية والاستقلال وإن كانت هذه الحرية وهذا الاستقلال خصما لفرنسا ؛ فهم يؤثرون الحرية على الوطن . وربما احتاط بعض كتابهم فلم يتردد فى أن يعلن أن فرنسا بريئة من الظالمين والمستبدين ، وأنها لم تستجب لنابليون راضية وإنما أذعنت له كارهة ، وأنها ابتهجت بسقوط نابليون ولكنها لم ترض عما كان بعد سقوطه من استبداد ، وهى على كل حال لم تحالف قط متيرلنك وشركاءه فى الحلف المقدس من أصحاب الرجعية . يغمزون بذلك حكومتهم التى تشارك فى حلف مقدس جديد قوامه الإنجليز والأمريكيون . وأنت تقرأ هذه الحصومة فى الصحف وتسمعها فى الأندية والمجالس الخاصة ، وتعجب لهذه الحياة العقلية التى يتصل فيها الفن بحياة الناس فى كل يوم .

أما القصة الثانية فالحصومة فيها أدنى إلى الصراحة وأشد إمعاناً فى العنف ؛ لأنها تتصل بالحياة التى يحياها الفرنسيون فى هذه الأيام ، وهى قصة « الأيدى القذرة » للكاتب الفرنسى المعروف جان پول سارتر . وكل ما يكتبه جان پول سارتر موضوع

للخصومة منذ وضعت الحرب أوزارها . كان الناس يختصمون
 في فلسفته الوجودية ، ثم اختصموا في آرائه الأدبية ، ثم هم الآن
 يختصمون في آرائه السياسية منذ أعلن حربيه الصريحة على فلسفة
 الشيوعيين وسياستهم . وهذه القصة نفسها ليست إلا مظهراً من
 مظاهر هذه الحرب ؛ فهى تصور فى من أبناء الأغنياء قد ضاق
 بالغنى وما يفرضه على أصحابه من هذه الحياة الفارغة التى لا تغنى عن
 أصحابها شيئاً ، فانضم إلى الحزب الشيوعى ، وهجر أسرته وثروته
 وبيئته ، واندقع فى تحمسه للحزب حتى شارك فى نشاطه كله ،
 وأصبح فدائياً مستعداً لتنفيذ ما يصدر إليه الحزب من أمر ،
 لا يجادل فى ذلك ولا يفكر فى الجدل ؛ لأنه وهب حريته وحياته
 للحزب لا ينتظر على ذلك أجراً ولا يريد جزاء . والحزب يأمره
 باقتراف جريمة القتل على رئيس من رؤسائه ؛ لأنه يصانع الظروف
 ويجرى مع ما تقتضيه السياسة فيحاول الائتلاف مع أحزاب
 المعتدلين . والفتى يتردد فى اقتراف الإثم ويطيل التردد حتى
 يوشك الحزب أن يشك فيه ، ولكنه يرى من الرئيس الذى قضى
 عليه الموت ما يريبه مع زوجته الفتاة ، فيقترب الإثم ويرسل إلى
 السجن . ويشك الحزب فى أنه قتله سياسة أو غيره . ثم يطلق

سراح الفتى ويعود إلى حزبه ، فإذا الحزب يريد أن يتخلص منه ، وإذا فتاة من أعضاء الحزب تحاول الإبقاء عليه لعله أن ينفع الحزب في بعض أمره . ولكن الفتى يستكشف تغيراً في سياسة الحزب فهو يستجيب للظروف ويحارى ما تقتضيه السياسة ويحاول أن يأتلف مع أحزاب المعتدلين كما كان الرئيس المقتول يريد أن يفعل ، وإذن ففيم قضى الموت على هذا الرئيس ؟ وقد استيأس الفتى فهو لا يستطيع أن يعود إلى بيئته الأولى ، وهو لا يستطيع أن يحارى الحزب في سياسته المرنة ، وهو لا يعلم لماذا اقترف الإثم ، وهو لا يفهم للحياة معنى ، وهو من أجل ذلك يعرض نفسه لما يدبر له من الموت .

والقصة بعد ذلك تفصل المشكلات السياسية تفصيلاً وتعرض كثيراً من ألوان الخصومة بين المتطرفين والمعتدلين . فليس غريباً أن يختلف حكم الفرنسيين عليها اختلافاً شديداً . فالشيوعيون وأنصارهم ينكرونها ، والمعتدلون وأشياعهم يعرفونها ، ولكن أولئك وهؤلاء يشهدونها على كل حال . فريق يشهدا معجباً بها ، وفريق يشهدا ساخطاً عليها . والفريقان يختصمان في الصحف ويختصمان في الأحاديث . والأجنبي يرى هذا كله فيحمد الحرية

ويطمح إليها ويسأل نفسه : أيمن أن يمثل مثل هذه القصة في بلد خاضع للنظام الشيوعي ؟ أيمن أن تمثل قصة تخاصم الفاشية والنازية في بلد خاضع للنظام الدكتاتوري ؟ ثم يحمد الديمقراطية الصحيحة التي تكفل للأفراد والجماعات من الحرية ما يتيح لهم أن يعتقدوا ويعلموا ما يعتقدون في غير مضارّة ولا تعرض لتحكم السلطان ، ويود لو أتيح لهذه الديمقراطية السمحة الحرة من سعة الأفق وإثارة الخير ما يمكنها من تحقيق العدل الاجتماعي إلى جانب الحرية . فالمشكلة التي شقيت بها الإنسانية وما زالت تشقى بها وستشقى بها فيما يظهر زمناً طويلاً ، هي تحقيق التوفيق بين الحرية والمساواة دون أن يضحي بإحدهما في سبيل الأخرى . والشئ المهم هو أن إقبال الفرنسيين والباريسيين منهم خاصة على شهود التمثيل والسينما وما يعرض في الملاهي من أنواع الرقص والغناء والموسيقى ، ينشئ لهم جوّاً حراً سمحاً طلقاً يتيح لهم أن يرتفعوا عن كثير من الصغائر ، وأن يتنزهوا عن كثير من النقائص ، وأن يستمتعوا بمزاج معتدل يعصمهم من الشطط في تقدير الأشياء والحكم عليها ، ويحول بينهم وبين هذا الفراغ الذي يورث الأثرة ويدفع إلى الغرور ويورط في كثير من

الرزائل والآثام . فالرجل الذى يعمل وجه النهار ليرضى حاجته إلى العمل ، ويقرأ آخر النهار وكلما يسرت له القراءة ليرضى حاجته إلى المعرفة ، ويشهد التمثيل ومعارض الفن ويسمع للغناء والموسيقى ليرفه على نفسه ويرضى ذوقه — هذا الرجل خليق ألا يفرغ لنفسه هذا الفراغ المنكر ، وألا يؤثر نفسه هذا الإيثار البغيض وألا يهدر حق غيره كما لا يجب أن يهدر أحد حقه ، وأن يكون رأيه فى الناس وفى الحياة معتدلاً مستقيماً غير ذى عوج ولا التواء . وكل ذلك ينشئ بيئة سمحة قوامها الأدب والمجاملة وحسن العشرة وكرم المخالطة .

وقد تثار الخصومات الكثيرة فى هذه الحياة . فالناس يختصمون دائماً تفرض منافعهم عليهم هذا الاختصام، ولكنه اختصام لا يفسد الحياة، ولا ينغص العيش ولا يدفع إلى المكر، ولا يغرى بالكيد، ولا يغير صداقة الأصدقاء، ولا يجعل بعض المواطنين لبعض عدوًّا . وما أكثر ما يختصم المختصمون فى مثل هذه البيئة أشد الاختصام وأعنفه فى الصحف أو فى البرلمان أوفى غير الصحف والبرلمان من وجوه النشاط ! ولكنهم على ذلك يلتقون وقد ألقوا عن أنفسهم ثقل الخصومة حين ألقوا عن أنفسهم

ثقل العمل ، وخلصت قلوبهم وعقوهم وضماثرهم لما يكون بين
 المثقفين حين يستقبلون مشهداً من مشاهد الفن أو موضوعاً من
 موضوعات الأدب أو خاطراً من خواطر الفلسفة . والشئ
 الذى لم أفهمه قط ولم أسغه قط ، هو أن الذين ينهضون بالأمور
 العامة عندنا قد ذهب أكثرهم إلى أوربا وعرفوا من حياتها
 ما أعرف ؛ فليست هذه الحياة مقصورة على فرنسا وإنما هى شئ
 شائع فى البلاد المتحضرة الراقية ، وهم يعجبون بهذا الذى أعجب
 به ويتحدثون عنه فيطيلون الحديث ، ولكنهم حين يفرغون لما
 يفرغون له من الأعمال العامة ينسون ما رأوا وينسون ما يجدون
 من الإعجاب والرضا ، ويستقبلون نشاطهم بشخصيات أخرى
 حظها من الحضارة المترفة المثقفة قليل ضئيل ؛ فهم يختصمون كما
 كان الناس يختصمون فى بعض البيئات القديمة ، لا يراعون فى
 خصوصيتهم رفقاً ولا أناة ولا ذوقاً ولا وقاراً ، وإنما هو العنف والإمعان
 فى العنف حتى يصلوا إلى أبعد غاياته مهما تكن النتائج ، يخلطون
 أنفسهم بأعمالهم وأعبائهم ، ويسرفون فى الإيمان بأنفسهم حتى
 يقدروا أنهم إذا نهضوا بالسياسة وأعبائها فإنما ينهضون بأمورهم
 الخاصة لا بأمور غيرهم من الناس .

ولست أعرف أشد غروراً ولا أعظم إمعاناً في الحمق من رجل يعيش في العصر الحديث ويمارس الأعمال العامة على النحو الحديث ثم لا يفرق بين شخصه وبين أعماله العامة ، ولا يقدر أنه حين ينهض بالمنصب أو يمارس السياسة ليس إلا وكيلاً للشعب ينوب عنه في تدبير بعض أمره نيابة موقوتة قد تقصر وقد تطول ولكنها موقوتة على كل حال . ولو قد فكر الناهضون بالأعمال العامة هذا النحو من التفكير لأراحوا أنفسهم ولأراحوا الناس من شر كثير وعناء ثقل . ولكن يظهر أن الحضارة لا تكتسب بالاختلاف إلى الجامعات والحصول على الدرجات والألقاب ، وإنما هي ثقافة يجب أن تتثقف بها النفوس وأن تتغلغل في أعماق الضمائر ، وأن تؤثر أشد الأثر فيما يعمل الناس وما يقولون . وأكاد أعتقد أن الحضارة والثقافة في بيئتنا الحديثة ما زالتا أشبه شيء بالظلاء الذي لا يستطيع أن يثبت لحر الشمس وتقلب الجو ، ولا يكاد يمتحن حتى يذوب ويتكشف عما وراءه من هذه النفوس القديمة التي لم تهذب تهذيباً أصيلاً ، وإنما هذبت تهذيباً متكلفاً طارئاً لا يقدر على مقاومة المنافع والآراب والأحداث .

ولم أشهد في باريس هذا اللون من جد التمثيل وحده، وإنما شهدت
لونا آخر من هزل التمثيل، فضحكت مع الناس حين كنت في
الملعب، وضحكت وحدي حين خلوت إلى نفسي، وما زلت
أضحك بين حين وحين كلما ذكرت هذه القصة، وكثيراً ما
أذكرها في مصر.

وما أريد أن ألخص القصة، فلست أملى فصلاً في النقد، وإنما
أريد أن أعود إلى ما كنت فيه من الحديث عن هذه الحياة السمحة
التي يحياها المتحضرون الذين هذبت عقولهم وقلوبهم تهذيباً
أصيلاً، فنظروا إلى الحياة وأحداثها نظرة فيها كثير من الرفق
والإسماح والبراءة من التخرج والتزمت والتضييق على النفس وعلى
الناس. فالقصة التي شهدتها تعرض على النظارة مجلساً من مجالس
القضاء يحاكم فيه برىء قد اتهم بأنه قتل زوجته ليخلص لحب
خليلته. وخليلته متهمة بأنها قد شاركت في بعض هذا الإثم. وقد
جلس القضاة وجلس المحلفون وجلست النيابة والمحاماة، وجعل
رئيس المحكمة يدعو الشهود ويسألهم ويحاورهم ويخلى بينهم وبين
حوار الاتهام والدفاع. وليس لصاحب القصة من هذا كله أرب
إلا أن يرفه على النظارة بإضحاحهم من بعض المظاهر الفكاهية

التي لا يخلو منها مجلس من مجالس القضاء . فالرئيس الشيخ
 ذكي لبق ما كرماهر ، ولكن الشيخوخة قد اشتطت عليه ، وظهر
 أثر ذلك في كلامه حين ينطق وفي ملاحظاته حين يلاحظ
 على الاتهام والدفاع ، وفي حوارهِ للشهود في شيء من السأم
 والاستخفاف من ورائه الجدل كل الجدل . والنيابة مندفعة في
 تكديس التهم بعضها فوق بعض . والمحاماة مندفعة في تزييف
 هذه التهم بما يساغ وما لا يساغ . والشهود مختلطون فيهم كثير
 من الخوف وكثير من الجهل وكثير من الدعابة مع ذلك .
 والنظارة يضحكون من هذا كله ومن هؤلاء جميعاً . حتى إذا
 أقيمت أم المتهمة وزعمت للمحكمة أن خليل ابنها ليس وفيها
 خليلته ، وأنها رآته يداعب فتاة أخرى ، ثارت الغيرة بين العاشقين ،
 وحاول الرئيس أن يرد الأمر إلى الهدوء فلم يزد إلا اضطراباً
 واختلاطاً ، حتى صار من العسير أن تمضي المحكمة في المحاكمة ،
 وصار من العسير أن يمضي الممثلون في التمثيل ؛ فقد اختلط
 الأمر على المحكمة ، وأغرق النظارة في الضحك ، حتى لم يبق بد
 من رفع الجلسة وإرخاء الستار .

فهذا فصل من فصول هذه القصة يضحك النظارة فيه من

القضاء دون أن يكون في ذلك غض من قدر القضاء أو استخفاف به ، ودون أن يجد القضاء في ذلك حرجاً أو جناحاً . وليس من شك في أن كثيراً من القضاة على اختلاف درجاتهم ومنازلهم قد شهدوا وما زالوا يشهدون هذه القصة التي لا تزال تمثل فيما أعتقد ، ويضحكون كما يضحك غيرهم من الناس ، لا يجدون بذلك بأساً ، ولا ينكرون على الكاتب والممثلين أنهم يسخرون من القضاء على هذا النحو البريء .

فأين نحن من هذه الحرية السمحة ؟ وكيف لو عرض كاتب ومثلت فرقة مجلساً من مجالس القضاء غالباً في الدعابة والفكاهة كما يقتضى الفن وكما تقتضى حاجة النظارة إلى التسلية عن أنفسهم ؟ ألا تزلزل الأرض بالكاتب والممثلين جميعاً ؟ ! ومع ذلك فهذا أيسر ما يشهد الناس من الأمر في باريس . فرجال السلطات الثلاث عرضة للفكاهة المتصلة والتندر الذى لا ينقضى ، لا يسلم من ذلك شيخ ولا نائب ولا وزير ، بل لا يسلم من ذلك رؤساء الجمهورية أنفسهم . فأما أساتذة الجامعات وكبار رجال التعليم فالتندر بهم مألوف . ولم لا وهم يتندرون بأنفسهم وطلابهم ، وتلاميذهم يتندرون بهم في الغيب والشهادة ، لا يجدون

في ذلك بأساً، ولا يضيق بذلك منهم صدر أستاذ أو مدير. فأين
 نحن من هذا كله؟ وكيف لو تنذر أصحاب المزاح بوزرائنا
 وساستنا وأساتذتنا؟! والغريب من الأمر، بل الطبيعي من الأمر،
 أن تنذر المتندرين وتفكه المتفكهين وعبث الناس بالذين
 ينهضون بالأعباء العامة، لا يغض من هيبة السلطان ولا يعرض
 السياسة والقادة والزعماء إلا للحب والتقدير ما استحقوا الحب
 والتقدير. والأصل في هذا كله أن لكل لون من ألوان العمل
 الإنساني ناحيته الخاصة وناحيته الهائلة، وأن الشعب في البلاد
 الحرة يرى أن الحياة العامة ملك له هو لا للسياسة ولا للقادة.
 وما دام الواجب الوطني المدني يقضى عليه أن يحتمل جد الحياة
 العامة ويشقى بهذا الجداً أحياناً في نفسه وماله، فإن الحق الوطني
 المدني يبيح له أن ينعم بما في حياته العامة من خير، ويلهو بما
 في هذه الحياة العامة من فكاهة أو دعاية أو مزاح. والمهم هو
 أن حياة الشعب ملك للشعب، يبتس بها حين تفرض عليه
 الابتس، ويبتج بها حين تتيح له الابتهاج، ويضحك منها حين
 تشير في نفسه الضحك. وليس للناهضين بأعباء هذه الحياة
 أن ينكروا ذلك أو يضيقوا به، فهم حين يقبلون النهوض بأعبائهم

لا يشترطون على الشعب ألا يضحك منهم حين تدعو سيرتهم للضحك، وألا يتندر بهم حين تدعو سيرتهم للتندر. وكما أن الكاتب والشاعر والفيلسوف والعالم لا يشترطون على قرائهم قبل أن يقدموا إليهم آثارهم أن يعفوهم من النقد، فالساسة والقادة والموظفون لا يشترطون على الناس قبل النهوض بأعمالهم أن يعفوهم من النقد سواء كان هذا النقد مرا أم حلواً وجداً أم مزاحاً، كذلك يحيا الناس في البيئات التي استقرت فيها الحضارة حتى ثبتت أصولها في أعماق النفوس. فأما البيئات التي تجتلب الحضارة اجتلاباً وتشترىها بالدرهم والدنانير وتزين بها في الشوارع لتتخفف منها في الدور، فهي بيئات لا تحتمل دعاية ولا فكاهة ولا مزاحاً، وإنما هي متحفظة متحرجة منزمتة، لا تفرق من شيء كما تفرق من النقد، ولا تفرع من شيء كما تفرع من الدعاية، وهي تكلف القوانين من حمايتها ما تطيق وما لا تطيق، فإن لم تسعفها القوانين التمس حمايتها في التحكم والظلم والاستبداد.

سيدي العزيز :

ففرغت الآن من قراءة كتابك الذي حمل إلى مع طعام الإفطار والذي قطع الطريق بين القاهرة وباريس في أقل من يومين ؛ فقد يظهر أنك أسلمته إلى البريد قبل أن تطير الطائرة بوقت قصير جدا . وقد طارت الطائرة أثناء الليل ووصلت مصبحة ، ولم يستأن ساعة البريد بكتابك ، فأقبل يسعى نشيطاً مرحاً كأنما يباهي بهذه السرعة التي جاب بها آفاق السماء . وقد تلقيته لا مرحاً ولا نشيطاً ، فلم يبعد عهدي بمصر بعد ، ولم أحس الشوق إلى ما ترسل إلى من الكتب والرسائل . وأكاد أقول إنني ما زلت مثقلاً بما كنت أحمل فيها من الأعباء لم أتخفف منه إلى الآن . وكيف أتخفف منه في هذه الأيام القليلة التي أنفقتها منذ تركت الإسكندرية ، وأنت تعلم أن حياة يوم واحد في مصر تعدل حياة أيام كثيرة في فرنسا ؛ لا لأننا نعمل في مصر

ونغنى أكثر مما نعمل ونغنى فى فرنسا ، بل لأننا لا نعمل شيئاً شيئاً أو لا نكاد نعمل شيئاً، وأن ما يصدر عنا من الحركة والنشاط ليس بذى غناء . وليس شىء أثقل من الحياة الفارغة ، وليس شىء أخف من الحياة المليئة . والحياة الفارغة عندى هى التى يستقبل فيها الإنسان الصبح المشرق والليل المظلم دون أن يضيف إلى علمه علماً وإلى معرفته معرفة ، ودون أن يحدث من الآثار ما ينفعه وينفع الناس . فإذا أضفت إلى هذا الفراغ الذى يملأ حياتنا فى مصر - إن صح أن يملأ الفراغ شيئاً - هذا السخف الكثير المختلف المختلط الذى يملأ يومنا وليلنا أيقاظاً ونياماً ، عرفت أنى لست غالباً ولا متكلفاً حين أقول إنى لم أتخفف بعد من ثقل الحياة المصرية ، ولم أشتق بعد إلى رسائلكم وكتبكم . وصفنى بما شئت من الغلظة والجفوة ، وقل فى ما أحببت من قسوة القلب والنبو عن الذوق ؛ فإنى أحدثك بذات نفسى ؛ لأنى تعودت أن أحدثك بذات نفسى لا ألتوى عنك بما أجد فى أعماق الضمير . فقد تلقيت كتابك إذن معرضاً عنه ، وقرأته لا أقول ضيقاً به ، ولكنى أقول إنى قرأته فى فتور . ثم سألت نفسى أأكتب إليك أم أطوى عن الكتابة كشحاً ، كما يقول الجاحظ . ثم أقبلت على الكتابة

إليك فاتراً كما أقبلت على قراءة كتابك غير نشيط . وأنت
تعتب عليّ بأنى لم أؤذنك بيوم السفر وساعته لتسعى إلى لقائى
وتخف لوداعى ، وتسألنى لماذا طويت عنك موعد السفر . يا عجباً
كل العجب ! فهل تذكر أنى أنبأتك قط بإزماح السفر حين
كنت أزمع السفر ؟ وهل تذكر أنى أنبأتك قط بيوم السفر وساعته ؟
أما أنا فأذكر أنى كنت ألقاك فيما مضى مصباحاً ومسيّاً وأسمع
حديثك فى التليفون بين ذلك ، لا تثقل عليّ زيارتك ولا يثقل
عليك لقائى ، ولا يضيق أحد منا بحديث صاحبه مهما يتصل ،
ولا يحتمل أحد منا سكوت صاحبه مهما يقصر . وكنت تعلم
من أمرى كله مثل ما أعلم ، وكنت تعلم من بعض أمرى أكثر
مما أعلم ؛ فأنت متصل بالناس تسمع ما يقولون عنى وما يقولون
فى ، وأنا منقطع عن الناس لا أكاد أعرف من أمرهم إلا ما يحمل
إلىّ فى دارى التى لا أتركها إلا قليلاً . وكنت أنت صلة
بنى وبين الناس تحمل إلىّ أنباءهم ، وتحمل إلى بعضهم أنبأى .
ثم أقبلت أيام أسفر فيها الصبح وغشى فيها الليل ولم ألقك فى
ليل ولا فى نهار . وقد أنكرت منك ذلك أول الأمر فسألت عنك
لأنى خشيت أن يكون بعض المكروه قد أقعدك عنى ، فعلمت

منك أنك موفور لا بأس بك ولا بأس عليك، وإنما شغلت
ببعض ما يشغل به الناس . وانتظرت أن تنجلي عنك هذه الغمرة
الطارئة، ولكنها لم تنجل ، وإنما تكاثفت وتتابع وركب بعضها
بعضاً ، وإذا اليوم يمضى وفي أثره اليوم وفي أثرهما الأيام لا ألقاك
ولا ألقى من يلقاك، ولا أعرف من أمرك ولا أسمع من نبئك
شيئاً . هناك علمت أنها القطيعة، ثم علمت أنه الانحراف الذى
تدفع إليه ظروف الحياة بعض الناس أحياناً . فصبرت نفسى
على ما تعودت أن أصبرها عليه من قطيعة الأصدقاء وانحراف
الأخلاء ونضوب الود فى قلوب الإخوان . ثم مضيت فى أمرى
أصعد فى نجاد الحياة وأصوب فى وهادها ، وأنت غنى لاه
ساه وأنا عنك لاه ساه ، لا يسأل أحد منا عن صاحبه ،
ولا يبتغى أحد منا إلى صاحبه وسيلة أو سبباً . ثم أقبلت على
هذا السفر كما أقبلت على كثير غيره من الأمر ، لم أؤذك بشيء
لأنى لم أعود أن أؤذك بشيء . وها أنت هذا تكتب إلى
تتجاوز فى كتابك العتاب إلى اللوم . فماذا حدث فى مصر من
الأحداث ؟ ما زالت أمور مصر تجرى على النحو الذى تركتها
تجرى عليه ، لم يتغير منها شيء ، ولم يبد للمنافع فيها والآراب وجه

جديد . ما سؤالك عنى بعد نسيانك لى ؟ ! وما تجنيك على " بعد
هذا الإغضاء الطويل ؟ ! أتريد أن أفسر لك غامض قلبك وخفى
نفسك وما التوى عليك من ذات ضميرك لعلك تجد فى هذا
التفسير شفاء لبعض ما يؤذيك من هذا الداء الدخيل منذ أيام ؟
أتريد أن أتحدث إليك بأنى عاتب عليك لأنك أغضيت عنى
وقطعت من أسبابى ما كان حقه أن يوصل ، وأن أفصل لك
أعراض هذه القطيعة ومظاهر هذا الإغضاء ، وأن أحصى عليك
بعض ما أتيت مما لا تحب ولا أحب ، فأكون أشبه بالطبيب
حين يستكشف الداء ويشق على المريض بعلاجه ولكنه يبرئه
آخر الأمر ، أو أشبه شىء بالجراح حين يفتح الدملى فينقيه مما
جمع من الصديد ؟ أرح نفسك يا سيدى ، لست طبيباً ولا جراحاً ،
ولست أحسن علاج النفوس المريضة ولا شفاء القلوب المدخولة ،
ولست أكره شيئاً كما أكره التنقيب فى ضمائر الناس . لن أعتب
عليك ؛ فإنك لم تدع إلى العتاب سيلاً . ولن ألومك فى أنى لا ألوم
إلا من أعتد به . وقد كنت أعتد بك حين كنت تمنحنى
ودك . فأما وقد استرددت هذا الود وآثرت به قوماً رأيتهم أحق به
وأجدر ، فى أنى أهنتك بأصدقائك الجدد ، وأنهى بك أصدقاءك

الجلد ، وأرجو ألا يعرض بينك وبينهم من الأحداث ما يصرفك عنهم أو يصرفهم عنك ، ومن يحولك إلى غيرهم أو يحولهم إلى غيرك كالذى عرض بينك وبينى من الأحداث . ومن يدرى هل مما يلائم نفسك أن تحدث صداقة جديدة بين حين وحين ؟ ففى كثير من الناس ملل ، وفى كثير من القلوب سأم . والناس يبدلون ثياب أجسامهم ويغيرون ألوان ما يأكلون ويشربون ، فما عليهم أن يبدلوا ثياب قلوبهم ! وقد قال الراجز العربى منذ قرون طوال :

البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها

فالبس يا سيدى للحال التى نحن فيها لبوسها . ولبوسها يسير جدا قريب جدا رقيق جدا ، هو أن نواد الأخلاء ما نفعتنا مودتهم ، وأن نحتملهم إذا لم يجلب علينا احتمالهم مضرة أو لم يضيع علينا منفعة ، وأن ننسل من ودهم كما تنسل الشعرة من العجين إن آنسنا من هذا الود جلب مضرة أو تضيع منفعة أو إغضاب من لا ينبغى أن نتعرض لغضبه من الناس . وأى شىء أيسر من أن تصفو لى اليوم وتكدر لى غداً ، ثم تعود إلى مثل ما كنت فيه من الصفو ، ثم ترتد إلى مثل ما كنت فيه من الكدر ، وتجعل نفسك على هذا النحو كرة تقذفها من الصلة إلى القطيعة ومن القطيعة

إلى الصلة ، وترجحها بين القرب والبعد ، وبين الوصل والصد ، وبين
الرضا والسخط . كل ذلك يسير قريب ملائم للحال التي نحن
فيها ، ولكنه لا يلائمني ، وإنما يخالف طبعي كل المخالفة .
وما أكثر ما كنت أغيظك بترديد هذا البيت :

حيّ الحمول بجانب الرمل إذ لا يلائم شكلها شكلي
فاسمعه مني للمرة الأخيرة ، واعلم أن شكلك لا يلائم شكلي ،
وجنبي ما تعلم أني أكرهه أشد الكره من الرياء والتكلف
والنفاق ، واقبل أو لا تقبل تحية خالصة يحمنني الأدب على
أن أضعها في آخر هذا الكتاب . . .

ولكني لم أكد أفرغ من إملاء هذه الرسالة حتى رأيتها ثقيلة
ممضة قاسية ، فتقدمت إلى صاحبي أن يطويها فيما يطوى .
وما أكثر ما يطوى من الأوراق !

هون عليك ياسيدى ، وثق بأنى لست لأثملك ولا واجداً عليك ؛
 فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها . وأكرم ما ينبغى للرجل ذى المروءة
 من المنازل أن يتأدب بهذا الأدب الكريم الرفيع فلا يكلف الناس
 ما لا يطيقون ، ولا يشق عليهم بما لا يستطيعون أن يتحملوا
 من الجهد . ونحن فى أيام تفرض على الذين يريدون الحياة
 اليسيرة السهلة أن يؤثروا العافية ويتجنبوا المصاعب ويتخففوا
 من الأثقال . والحياة التى نحيها فى هذه الأيام أشبه شىء
 بالبحر المضطرب الذى تعصف به الرياح ، ويضطرب فيه
 الموج اضطراباً يوشك أن يكون هديرًا ، ويتعرض من يعبره
 للهول كل الهول إذا لم يكن خفيفاً رقيقاً يميل مع الرياح كل
 ميل وينحرف مع الموج كل منحرف ، فإن لم يفعل ذلك هوى
 إلى القاع أو أوشك أن يهوى إلى القاع .

فلا تلم نفسك ، ولا تحسبني ألومك على أنك قد تخففت من

بعض الثقل ، وتحررت من بعض القيد ، وأعفيت نفسك من بعض هذا الواجب الذى يفرضه على الناس ذلك الشيء القديم العتيق البالى الذى نسميه الأخلاق . الأخلاق شيء رث حقاً قد أكل الدهر عليه وشرب ، وأبلاه تصرف الأيام وتقلب الأحداث وتتابع الخطوب ، حتى أصبح تلة العاجزين وتكأة الحاملين الحامدين الذين لا يبعون فى الأرض تقدماً ولا علواً ، والذين لا يحسنون مجارة الأيام وملاينة الحوادث الهوج .

هون عليك ياسيدى ! لقد كان ابن الزيات يقول إن الرحمة خور فى الطبيعة ، فلنقل مع ابن الزيات إن الوفاء قصور فى الهمة وفتور فى العزيمة وفساد للمزاج . ولنقل مع ابن الزيات وأمثاله إن إخاء الإخوان وصداقة الأصدقاء وود الأخلاء كل ذلك حسن إن أدى إلى منفعة أو زاد مضرة أو وقى من مكروه ، فأما إن ضيع المنفعة وجلب المضرة وورط فى المكروه فهو الحمق الأحمق ، وهو العجز العاجز ، وهو الخصلة التى تدل على أن صاحبها لا يصلح لشيء ولا يرجى لشيء ولا ينتظر منه شيء . وضع نفسك حيث تريد لك الأخلاق أن تكون ، ووازن بين حالك إن فعلت وبين حالك بعد أن لم تفعل . إن صدقتك

الذى كنت تعرفه وتألفه وتركن إليه مجفو قد نبت به الدار
وتنكر له الذين يملكون النفع العاجل والضرر القريب . فلو قد
وفيت له وأصفيته مودتك وصدق إحنائك ، لحفاك من يجفوه
ولتنكر لك من يتنكر له ، ولنبت بك الدار التى نبت به ، ولا نصرفت
عنك المنافع التى انصرفت عنه ، ولأقبلت عليك المحن التى أقبلت
عليه ، ولأقمت بين قومك فى دارٍ قلى لا تجد فيها من يعرفك
ولا من يألفك ولا من يتقرب إليك ولا من يبتغى إليك الوسائل
ويصل بك الأسباب . إذن خلوت إلى نفسك فى أكثر الوقت ،
ولألتست ما تحب فلا تجد منه شيئاً ، ولقررت مما تكره فلم تجد
إلى الفرار منه سبيلاً . وأنت رجل تحب الدعة وتؤثر السعة
وتطمع فى خفض العيش وبسطة الرزق وامتداد الجاه واتساع
السلطان ، لا تستطيع أن تصبر نفسك على الضيق ولا أن تروضها
على التواضع ، ولا أن تقنعها بما قسم لها ؛ فهى دائماً طامعة طامحة ،
وأنت دائماً شقى بطمعها وطموحها تتكلف فى سبيلهما من
الجهد ما يطاق وما لا يطاق ، وتأتى فى سبيلهما من الأمر
ما يباح وما لا يباح ، وترضى فى سبيلهما بالمتزلة التى لا يرضاها من
كرمت عليه نفسه فأبى أن يخضعها للضميم ويذلها لتحكم المتسلطين .

هون عليك يا سيدي! لقد عرفتك حق معرفتك وبلوتك أحسن
ما يبلو الإنسان الإنسان . وعرفت فيك هذا الطمع الذي لا حد
له ، وهذا الطموح الذي لا ينتهي إلى غاية ، وعرفت فيك الضعف
عن مقاومة الشهوة حين تعصف بك ، وعن الامتناع على المنفعة
حين تلح عليك . وأنت رجل قد نشأت محروماً مأزوماً مكلوماً
هيناً على الناس ، وقد آذاك هذا كله في نفسك أشد الإيذاء ،
فنشأت وفي نفسك نزوع إلى الانتقام وجشع إلى الظفر بالثأر .
شقيت ورأيت قوماً حولك يسعدون ، فرأيت في سعادتهم إهانة
لشقائقك ، وأضمرت لهم في نفسك حقداً دفيناً وبغضاً كميناً وعداء
مبيناً ، وأزمعت أن تجاهد في الحياة حتى تنعم كما نعموا وتسعد
كما سعدوا وتصبح لهم ضريباً . فلما بلغت من ذلك ما أردت
لم تفتر همتك لأنها لا تعرف الفتور ، ولم تقعد عزيمتك لأنها
لا تألف القعود ، ولم تضق آمالك لأنها لا تحب الضيق ، وإنما
أزمعت أن تفوت القوم بعد أن أدركتهم ، وأن تستعلى عليهم كما
استعلوا عليك ، وما زلت تجد وتكد حتى ظفرت من ذلك بالشيء
الكثير ، تظهر للناس ودّاً وتضممر لهم عداء وحقداً . لم تخلص نفسك
قط لصديق ولم يصف قلبك قط لخليل ، وإنما أنت رجل متكلف

دائماً تتودد لمن خفت وتتودد لمن أكبرت وتتودد لمن رجوت ، حتى إذا أمنت من تخاف ، وناظرت من تكبر وأدركت ما ترجو ، تنكرت وتنمرت واستكبرت ثم بغيت وطغيت واستعليت ، ثم آمنت بنفسك وحدها ولم تؤمن بغيرها إلا أن تكون لك عنده حاجة أو تكون في نفسك له مهابة .

وكذلك أنت دائماً متكلف في الصداقة ، متكلف في الإخاء ، متكلف في المجاملة ، متكلف في المصانعة . فالأخلاق عندك وسيلة لا غاية ، والوفاء عندك أداة لتحقيق المنافع وقضاء المآرب وإدراك الآمال . كذلك عرفتكم منذ اتصلت بينك وبينى أسباب الحياة . كنت شديد الحاجة إلى " فكنت شديد الوفاء لى ، وكنت شديد الخوف منى فكنت شديد التجبب إلى " ، وكنت تظن أنى قد خدعت عنك وآمنت لك وصدقت أحاديثك الكاذبة وأمانيك الخائبة واطمأنت إليك كما يطمئن الأخ الصديق إلى الأخ الصديق ؛ فكان ذلك يزيد مكرك بى وكيدك لى وخداعك إياى . ولم أكن شهد الله إلا مشفقاً عليك راحماً لك . والحر يخدع أحياناً فينخدع ، كما أنه يظلم أحياناً فيظلم ، على علم منه بأنه منخدع ، وعلى ثقة منه بأنه مظلّم ، يدفعه إلى ذلك رفقته

بالضعفاء وعطفه على البائسين . وأى الناس أشد ضعفاً وأبأس
 بؤساً وأحق بالرحمة والعطف من هؤلاء الذين تصغر نفوسهم
 وتكبر آمالهم !

كنت إذن شقيقاً عليك رعوفاً بك منخدعاً لك ، لا تتقدم
 إلا لدفعتك إلى أمام ، ولا تبلغ منزلة إلا رقيت بك إلى منزلة أعلى
 منها ، وأنت تقول فى نفسك يا له من أحمق ! وأنا أقول فى نفسى
 يا له من بائس ! حتى إذا دارت الأيام وخيل إليك أنك قد بلغت
 الغاية وأدركت الأمد واستأثرت بالأمر تصرفه كما تحب وتهوى ،
 أرسلت نفسك على سميتها وأجريتها على طبيعتها ، وألقيت تلك
 الحجب التى كنت تتصنعها ، وألغيت تلك الكلف التى كنت
 تتكلفها ، وأقبلت على الخيانة والغدر والحدود ، لا تحفظ ولا
 تتحرج ولا تحتاط . خيل إليك أن الحياة قد استقامت لك ،
 وأن الدنيا قد لاذت بك ، وأن السلطان كله قد انتهى إليك ،
 فاستخففت حتى بأيسر المجاملة ، واستهترت حتى بأنكر النكر .
 ثم لا أدرى كيف ثابت إليك نفسك القديمة أو كيف ثبت
 إليها ، وما هذا الطائف الذى طاف بك فعلمك فى لحظة من
 لحظات الحياة أن لبعض العهد القديم حقوقاً يجب أن تحفظ

وحرمت يجب أن ترعى ، وإذا أنت تكتب إلى كتابك هذا
الغريب تذكرني فيه بأيامنا تلك ، وتريد أن نعود إلى
عهدنا ذاك .

هيهات يا سيدى هيهات ! قد صرح الشر وظهر النكر واستبان
خفيات النفوس . وأقسم لقد خدعت نفسك أو خدعت عنها
حين كتبت إلى هذا الكتاب ، ولكنك لم تخدعنى الآن ولن
تخدعنى غداً ، كما أنك لم تخدعنى قط ؛ فأنا مشفق عليك الآن
وغداً ، كما أشفقت عليك أمس وأول من أمس وأول من أول من
أمس . ورب إشفاق خير منه الاحتقار . ورب رحمة خير منها النعمة
ورب عطف خير منه الازدراء . ولكنك لا تبلغ من نفسى أن أحتقر
أو أزدريك أو أنقم منك . فأنعم بما أنت فيه من دعة كاذبة
وسعة باطلة وجاه موقوت . وثق بأن الأيام التى دارت لن تقف
ولكنها ستمضى فى دورانها ، وستبدى لك صفحاتها ، وستلصق بالقليل
أو الكثير مما تكره . وثق بعد ذلك أو مع ذلك بأنك ستجدنى
كما وجدتني دائماً معيناً لك دافعاً إياك محققاً لك المنافع قاضياً
لك الآراب ، لاعن رحمة ولاعن عطف ولاعن إشفاق ، ولكن عن
ازدراء واستخفاف . وأنا مطمئن إلى أن ذلك سيرضيك ويسليك

ويسرّى عنك الهم ، ويفتح لك أبواب الأمل ؛ لأنك لا تكره شيئاً كما تكره التحليل والتعليل والتأويل ، ولا تفر من شيء كما تفر من التعمق والفهم . ولأنك تأخذ المنافع كما تجيء وكما تكون ، لا تسأل من أين تأتي ، ولا تسأل كيف تأتي ، ولا يعينك أن تعرف من أين تأتي أو كيف تأتي ، وإنما يعينك أن تتلقاها متى عرضت لك .

فانعم بحياتك هذه الجاهلة الغافلة ، وأرحني من جهلك وغفلتك ؛ فإنني لا أحب أن أستقبل الأمر إلا عالماً بمصادره وموارده . وبعد فأنا مستيقن أنك لم ترسل كتابك هذا الغريب حتى أنكرته ولت يدك على أن خطته ، ولت نفسك على أن أسلمته إلى البريد ، وجعلت تسائل حين تخلو إلى نفسك وحين تلقى أصحابك الذين يشاركونك في هذه الضعة الوضيعة : كيف يكون لقائي لهذا الكتاب ، وكيف يكون ردى عليه ، وكيف يكون تأثرك بهذا الرد ؟ فاطمئن ياسيدى ؛ فلن تعرف من هذا كله شيئاً ؛ لأننى سأقدم إلى صاحبي فى أن يطوى هذا الكتاب فيما يطوى من الأوراق . وما أكثر ما يطوى من الأوراق ! .

لن تقرأه إذن ، ولن تعلم كيف تلقيت كتابك وكيف كان

ردى ، عليه ولن تتكلف الجهد اليسير أو العسير لتلائم بين
سيرتك التى تحبها وبين ما أحب أنا أن يكون عليه
الأصدقاء .

١١

لا تشق على نفسك يا سيدى ولا تكلفها ما لا تريد أن
تتكلف من المودة بعد أن انقطعت أسبابها، ومن الوفاء بعد أن
عصفت به الريح . لست أدري ما هذه الظاهرة الجديدة التى
أخذت تظهر منذ وصلت باريس . فهذا الكتاب الذى تلقيتَه
منك هو الكتاب الثالث من هذه الكتب التى تتكلف الود
وتتصنع الحرص على الوفاء . أيمكن أن يكون الندم قد وجد إلى
نفوسكم سبيلاً ، أم هو الإمعان فى المكر والغدر والخداع
يدفعكم إلى هذه الكتب التى تقطر وفاء وسخاء وإخاء بعد أن
قدمتم بين أيديكم من الأعمال ما يقطر رياء ونفاقاً وكيداً ؟ !
تبارك الله ! كنت تريد أن تلقانى قبل أن أبرح الأرض ، فاحمد
الله على أنك لم تلقنى ؛ لأننى عرفت غدرتك الشبهاء، وتمنيت أن
يجنبك الله لقائى حتى لا تتورط فى الخزى حين ترى صديقاً
لم يقدم إليك إلا خيراً ، ثم لم تقدم إليه إلا مكرراً وغدراً .

احمد الله إذن على أنك لم تلقني قبل أن أبرح الأرض .
 واجتهد في ألا تلقاني بعد أن أعود إلى الأرض ؛ فإنني لا أحب
 للناس أن يستخذوا من أنفسهم أمام أنفسهم ، فأولى ألا أحب
 للناس أن يستخذوا من أنفسيهم أمام الناس . ولو استطعت أن
 أستر سيئاتك عن نفسك لأجنيبك الاستخذاء أمامها لفعلت .
 ولكن الأيام ستقوم عني بهذا الأمر ، فستنسبك غدرك ومكرك ،
 وستصور لك أنك الأخ النقي الوفي الأبى ، وستنسيني أنا أيضاً
 مكرك وغدرك وجحودك ؛ وستخيل إلى أنك ما زلت كما كنت
 رجلاً يظهر الخير ويخفي الشر ولا يجاهر بالحيانة ولا يصرح
 بالإثم تصريحاً . ولكن دع الأيام تفعل فعلها ، أتح لها أن تنسبك
 نفسك ، وأتح لها أن تنسيني غدرك الشبهاء . والقني إن شاء الله
 بعد شهر ؛ فلن تجد عندي إلا ما تحب . ومن يدرى ! لعلني
 لا أنتظر بك أن تسعى إلىّ ، ولعلني أن أسبق إلى دعائك
 أو السعي إليك ؛ فإنني قد أخذت نفسي منذ دهر طويل بقول
 بشار :

وصاحب كالدمل المُمِدَّ حملته في رقعة من جلدي
 وأخذت نفسي بقوله أيضاً :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
 ظمئت وأى الناس تصفو مشاريه
 وإن كنت لا أشرب على القذى إلا ود هؤلاء الأصدقاء الذين
 يتكلفون الودّ وليسوا منه فى شيء .

وبعد ، فقد أهملت كتاب صاحبيك فلان وفلان ، لم أرد عليهما
 أو لم أرسل ردى عليهما ، فما لى لا أهمل كتابك أنت كما أهملت
 كتابي صاحبيك ! أرخني إذن من نفسك وأرح نفسك منى ،
 وانتظر لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . لن تقرأ هذا الكتاب ؛ لأننى
 سأقدم إلى صاحبي فى أن يطويه بين ما يطوى من الأوراق .
 وما أكثر ما يطوى من الأوراق !

وقد يسأل القارئ ما بالى خرجت بهذه الكتب من السر بعد
 أن استودعته إياها؟ وما بالى أقرئ هؤلاء الكاتبين ردى على
 كتبهم منشوراً فى كتاب مع أنى أبيت أن أقرئهم هذا الرد فيما
 بينهم وبين أنفسهم ؟ وجوابى على هذا السؤال يسير جداً ، وهو أنى
 لم أتلّق فى باريس كتباً ولم أرد عليها . وإنما أنفقت فى باريس
 وفى الطريق بين القاهرة وباريس ساعات كثيرة ، أفكر فى أفراد من
 الناس منهم من أعرف ومنهم من لا أعرف ، ولكنهم جميعاً قد أذعنوا

للمنفعة واستسلموا للمآرب ، وأذلوا أنفسهم للحاجات ، وأهدروا
من الأخلاق وقوانين الود ما تواضع الناس على أن يكبروه ،
ومسنى من بعضهم شر قليل أو كثير ؛ فذكرتهم فيما كنت أذكر ،
وتحدثت إليهم فيما كنت أتحدث . وأخص ما يمتاز به السفر
بالقياس إلى أنه يردني إلى نفسي ويذكرني أشياء تصرفني
عنها شؤون الحياة وخطوبها أثناء الإقامة . فقل إن شئت إني
نائم حين أقيم ويقظ حين أظعن ، وإني أستحضر أثناء الظعن
ما يعرض لي وما يعرض من حولى أثناء الإقامة ، كما يستحضر
المستيقظ ما يستطيع أن يستحضر مما عرض له أو عرض من
حوله في الأحلام التي يسوقها النوم إليه أو يسوقه إليها . وأنت
تري أن يقظتى ليست باسمه دائماً ؛ لأن أحلامى ليست باسمه
دائماً . وأنت ترى أنى لست فى ذلك بدعاً من الناس ؛ فالرجل
الذى تبسم أحلامه دائماً وتبسم يقظته دائماً لم يخلق بعد . والإنسانية
تبذل ما تبذل من الجهد وتلقى ما تلقى من العناء وتحتمل ما تحتمل
من المشقة لعلها أن تتيح لهذا الإنسان الذى يبسم حلمه وتبسم
يقظته أن يوجد فى يوم من الأيام .

صديق العزيز . . .

أعلم أنك لم تكذت تعود إلى باريس أثناء الشتاء حتى قعدت في دارك وأغلقت بابك ، وأذنت أصدقاءك ومحبيك أنك لا تريد أن يشقوا عليك ولا على أنفسهم بالسعى إليك ؛ لأنك لن تلقى منهم أحداً . تحرص على أن تخلد إلى الراحة وتفرغ لما تريد أن تفرغ له من العمل . ولكننا نلّم بباريس إلمامة قصيرة ولا نستطيع أن نسلو عن أن نهدي إليك تحية ملؤها الود والوفاء ، وسنكون أسعد الناس إن أتاحت لك صحتك وأتاح لك وقتك أن تلقانا ساعة حول مائدة الغداء في اليوم الذي تختاره قبل يوم السفر الذي سيكون في اليوم الخامس من هذا الأسبوع . وقد فرغنا من قراءة كتابك الأخير ، فزادتنا هذه القراءة إكباراً لك وإعجاباً بك إن كان من الممكن أن يكون في إكبارنا لك وإعجابنا بك مزيد .

وقد تلقى هذا الكتاب في الضحى ، ولم يتجاوز النهار نصفه حتى تحدث إلىّ في التليفون كأحسن ما يكون الحديث ، وأنبأني بأنه سيتغدى معنا إذا كان الغد . ولست أدري كيف تلقيت حديثه ، ولكن الذين كانوا حولي رأوا نوراً يغمر وجهى فجاءة كأنما أشرق عليه من أداة التليفون . ولست أدري كيف انتظرت هذا اللقاء الموعود ، ولكن الذين كانوا حولي شهدوا بأنهم لم يروني قط بحيث رأوني من سماحة النفس وطلاقة الوجه وحسن الخلق ورقة الحديث . ولست أدري كيف استقبلت حين أقبل ، ولا كيف قضيت معه تلك الساعة القصيرة نصيب من الطعام قليلاً ونحو من حديث الأدب والأدباء في بحر لا ساحل له ، وإنما أعلم أن هذه الساعة القصيرة كانت وما زالت وستظل تعدل عاماً كاملاً من الأعوام التي أقضيها مقيماً في مصر أو متنقلاً خارج مصر . وأعلم كذلك أني صحبتته إلى داره وودعته عند باب الدار ، واستبقيت سماحة النفس وطلاقة الوجه وحسن الخلق وعذوبة الحديث والابتسام للحياة والأمل في الأيام يوماً وبعض يوم . ثم أخذنا نتهياً للعودة إلى القاهرة ، فترور ونزار ، ونحزم الأمتعة كما يقال ، ونسعى إلى القطار ونقضى فيه الليل كله

ثم نقضى فيه أكثر النهار نستقبل إيطاليا مع الشمس المشرقة
ونبلغ جنوا حين ينشر الأصيل حزنه الشاحب على الأحياء
والأشياء ، ثم ننفق الليل فى الفندق وننفق النهار فى مدينة جنوا
منتقلين بين أحيائها فى يوم مطير بارد ، ثم نأوى إلى السفينة
مع الليل وأنا فى أثناء هذا كله أبحث عن نفسى فلا أجدها ،
وأتمس صديقى ذاك الذى فارق الحياة منذ قليل والذى لقيته
فى سفرى إلى باريس ونعمت بصحبته فى جنوا ، وسعدت بحديثه
فى السفينة والقطار فلا أجده . وأريد أن أستحضر تلك الساعة
الحلوة القصيرة التى قضيتها مع صديقى ذلك الكريم العظيم فلا
أجد إلى استحضارها سبيلا ، وإنما هى الحياة الفارغة التى يملؤها
السخف : زيارات تؤدى وزيارات تتلقى ، واضطراب فى هذه
الشؤون التى يضطرب فيها المسافرون ، وجلوس إلى مائدة
الطعام قبل أن نركب القطار ، وإقبال على طعام الإفطار الذى
تحملة إلينا فى الحدود فتيات مشرقاى النفوس والوجوه والأصوات ،
ثم محاولة للتفكير فى غير نفع ، ومحاولة للحلم فى غير طائل ، وإغراق
فى التدخين ، وتجاذب للحديث الذى لا يغنى عن أصحابه شيئا .
وقد خرجت السفينة من الثغر أثناء الليل ، وأصبحنا وقد أذهلنا

البحر عن أنفسنا: ريح عاصفة قاصفة، وموج مضطرب مصطخب،
وسفينة تريد أن ترقص فلا يتاح لها الرقص، وإنما هي حركة
عنيفة مختلطة تميل بها إلى هذا الجانب ثم إلى ذاك، وتميل بها إلى
أمام ثم إلى وراء، وآتية تساقط هنا وهناك، ودوار يلزم أكثر السفر
مضاجعهم، وخوف يعبث ببعض النفوس، والشمس مع هذا كله
مشرقة بنور ربها تسخر في هدوء من السفينة والسفر والبحر، كأن
الريح من حولها لا تعصف ولا تقصف، وكأن أمواج البحر
لا تضطرب ولا تصطخب، وكأن حركة السفينة لا تختلط،
وكان ألواح السفينة لا تبعث هذا الأنين الذي يؤذى النفوس.

(٤) ونحن ننفق أكثر النهار بين غضب الريح واضطراب
البحر وسخريّة الشمس الهادئة التي تملؤها الكبرياء. حتى إذا دنا
الأصيل سكنت الريح وسكت البحر واستيقظ الناس سكارى
وما هم بسكارى، وأقبلوا على طعام العشاء في فتور فاتر خير منه
الاستقرار في المضاجع والمخادع (٥) ثم يرد الليل الهادئ إلى السفر
شيئاً من قوة وفضلاً من نشاط، فيستقبلون يومهم الثاني فرحين
مرحين كأنهم لم يمتحنوا في أنفسهم وأجسامهم امتحاناً عسيراً
منذ وقت قصير، وهذه فتاة من فتيات الفن الرخيص ترقص

للشمس المشرقة الساخرة ، وللبحر الهادئ المطمئن ، وللسفر
الذين لا يعينهم من الرقص إلا جسم غض بض يعرض عليهم
من محاسنه ما ظهر وما خفى .

وهذا رجل فى الطرف الآخر من السفينة قد استحضر دُبًّا
صغيراً فى قفص ضيق ضئيل ؛ فهو يخرج الدب من قفصه بين
حين وحين ، ويعلمه ألوان الرقص وفنون اللعب ، يأخذه بالرفق
قليلاً وبالعنف كثيراً . والناس من حوله ينعمون ويتهجون :
فريق من السفر يستمتعون برقص الدب ، وفريق آخرون من السفر
يستمتعون برقص الفتاة الحسنة . والبحر الساكن المستقر
والشمس الهادئة المشرقة يسخران من أولئك وهؤلاء . وتبلغ
السفينة ثغراً من الثغور ، فلا تكاد تستقر فيه حتى يصعد إليها
الحجون والفجور يستهويان من يستجيب للهوى ويغويان من يستجيب
للغواية . وينبئنى صاحبي ببعض ذلك ، فأعرف سخرية الوجود بالناس ،
واستعلاء الله عز وجل عن أن يؤخذ الناس بما يكسبون . فلو
قد فعل لما أبقى على ظهر الأرض ولا على متن البحر من دابة .

وأنا أفزع مع صاحبي من هذا كله إلى القراءة والإملاء ،
ولكنى أحاول على ذلك أن أصل إلى نفسى فلا أجدها ، وأدعو

مع ذلك صديقى ذاك فلا أسمع له جواباً ، وأحاول أن أستحضر
حياتى تلك فى باريس فلا أجد إلى استحضارها سبيلاً . وأنا
ضيق بالسفينة ، ضيق بالبحر ، ضيق بالسفر ، ضيق باعتدال
الجو وصحو السماء ورقة النسيم . أفزع من هذا كله إلى القراءة
والإملاء ، فلا أجد فى القراءة والإملاء غناء .

وأصبح ذات يوم وقد هدأ سعى السفينة حتى أصبح
حركة لا تكاد تحس ، وإذا جندي مصرى فى زيه وأداته قد أقبل
فاحتل السفينة ، وكان احتلاله رفيقاً رقيقاً ، اختار له مكاناً ألقي
نفسه فيه إلقاءً ، وأسند سلاحه فيه إسناداً ، وجعل يتفكه بنظره
إلى فريق من السفر ، ويتلهى بالتحدث إلى فريق ، ويقول لى
صاحبى مبتسماً : « ها نحن أولاء نشرف على أرض الوطن
العزیز » .

فتقع فى نفسى هذه الكلمة موقعاً غريباً ، لأنها تشعرنى بأنى
خرجت من اليقظة فدخلت فى النوم منذ فارقت صديقى
ذاك الكريم العظيم .

ثم نهبط من السفينة فنرى ما تعودنا أن نرى ، ونسمع ما تعودنا
أن نسمع ، ونقرأ ما تعودنا أن نقرأ ، ونضطرب ما تعودنا أن نضطرب

فيه من الأمر : نوم عميق ثقيل ، وحلم متصل طويل . فمتى
يتاح لى أن أستأنف السفر لعلى أن أستيقظ ، فألقى صديقى ذاك
الذى فارق الحياة ، وألقى صديقى هذا الكريم العظيم ، وأجد
نفسى فى منعطف من منعطفات السفينة فأقول لها وأسمع منها
وأجاذبها أطراف حديث إن لم يكن حلواً كله فإن فى مرارتها
راحة ومتاعا .

السفينة كيرينيا ٨ مايو سنة ١٩٤٨ .

القاهرة ١٥ يونيو سنة ١٩٤٨ .

بقلم الدكتور طه حسين بك

٣٠	في الأدب الجاهلي	٤٠	عثمان
٣٥	فصول في الأدب والنقد	٢٠	الأيام أول
٢٥	مع أبي العلاء في سجنه	٢٥	الأيام ثان
٤٠	حديث الأربعاء ثالث	٠٠	لحظات أول (نقد)
٢٠	من حديث الشعر والنثر	١٨	لحظات ثان
٢٠	على هامش السيرة أول	٢٠	دعاء الكروان
٢٥	على هامش السيرة ثان	١٨	الحب الضائع
٢٥	على هامش السيرة ثالث	٢٥	جنة الشوك
٤٠	مستقبل الثقافة في مصر	٢٥	أديب
٢٥	شجرة البؤس	٣٦	صوت باريس جزءان
٥	أحلام شهرزاد (سلسلة «اقرأ» رقم ١)		
٥	صوت أبي العلاء (» » » رقم ٢٣)		
٥	رحلة الربيع (» » » رقم ٦٩)		

منزله الصحيح والنشر
دار المعارف بمصر

بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

عبقريّة الصديق	٢٠
» الإمام	٢٥
الصديقة بنت الصديق	٢٥
فرنسيس باكون	٢٥
أثر العرب في الحضارة الأوربية	٢٠
الله	٤٠
مجمع الأحياء	١٥
شاعر الغزل (سلسلة « اقرأ » رقم ٢)	٥
جميل بثينة (» » » » ١٣)	٥
في بيتي (» » » » ٣٣)	٥
ابن سينا (» » » » ٤٦)	٥

منزعم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

بقلم الأستاذ أحمد الصاوى محمد

٢٥	هاينى	٢٠	حياة قلب
٢٥	بلزاك	٢٠	العاصية
٢٥	بيرون	٢٠	شباب الفولجا
٢٥	التلميذة الخالدة	٢٥	الشیطان لعبته المرأة
٢٥	شلى	٢٠	جرائم شرقية وغربية
٢٥	عرش وقلب	٢٠	الموجة العذراء
٣٠	فوشيه	٢٠	مأساة فرنسا
٢٥	أنا الشرق	٢٠	أسرار انهيار أوربا
٢٥	رجال ونساء (أول)	٢٠	الرقص على البارود
٢٥	رجال ونساء (ثان)	٢٠	الطابور الأول
٢٠	الوحش الأصفر		

ملزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

بقلم الأستاذ على الجارم بك

٢٠	ديوان الجارم أول (نفد)	٢٠	فارس بنى حمدان
١٠	ديوان الجارم ثان	٢٥	قصة العرب في أسبانيا
١٠	ديوان الجارم ثالث	٢٥	غادة رشيد
٢٠	ديوان الجارم رابع		
٥	شاعر ملك (سلسلة « اقرأ » رقم ٦)		
٥	سيدة القصور (» » » ١٩)		
٥	الشاعر الطموح (» » » ٥١)		
٥	خاتمة المطاف (» » » ٥٨)		
٥	مرح الوليد (» » » ٦٢)		

ملزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

بقلم الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

٢٥	زنوبيا
٢٠	أبو الفوارس
٢٠	آلام جحا
٢٥	مع الزمان
١٨	عبد الشيطان
٥	شكسبير (سلسلة «اقرأ» رقم ١٧)
٥	جحا في جانبولاد (سلسلة «اقرأ» «٢٢»)
٥	عنتره بن شداد (» » » «٤٣»)

بقلم الأستاذ ميخائيل نعيمة

٢٥	البيادر
٢٥	الغربال
٢٥	صوت العالم
٢٠	كرم على درب

ملف من الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

ترقبوا قريباً مجموعة :

ذخائر العرب

التي ستعنى بإحياء تراث العرب
الخالد ونشر نفائسه في تحقيق دقيق
وإخراج فني بإشراف لجنة من
كبار العلماء هم حضرات أصحاب
المعالي والسعادة والعزة والفضيلة :

محمد حلمي عيسى باشا والدكتور عبد الوهاب عزام بك
والدكتور طه حسين بك والدكتور أحمد أمين بك
والأستاذ علي الجارم بك والأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر

تصدر عن

دار المعارف بمصر

مجلات ثقافية

الكتاب (تصدر ١٠ مرات في السنة)

رئيس التحرير الأستاذ عادل الغضبان

تلتقى فيها أقوى الأقلام العربية وتحمل إلى القراء في مطلع كل شهر أشهر ما يصبو إليه العقل والقلب من الروائع التي يزخر بها تراث العرب وتزدهر به آفاق العصر .

مجلة علم النفس (تصدر ٣ مرات في السنة)

رئيسا التحرير الدكتوران يوسف مراد ومصطفى زيور

المجلة الوحيدة التي تقدم بانتظام للقارئ العربي مقالات علمية في شتى موضوعات علم النفس مستقاة من أوثق المراجع الحديثة أو قائمة على التجارب .

صحيفة التربية (تصدر ٣ مرات في السنة)

رئيس التحرير الأستاذ إسماعيل محمود القباني بك

المجلة الفريدة في بابها تعالج شؤون التربية والتعليم وما يتصل بها وتجلو للمعلم والطالب أحدث أساليب التربية في المدرسة والمنزل والمجتمع .

دار المعارف بمصر

واجبنا نحو أطفالنا وشبابنا

إن واجبنا نحو أطفالنا وشبابنا يقضى علينا أن نضع بين أيديهم القصص المفيدة الممتعة يطالعونها في بعض أوقات العطلة لتتغمد بينهم وبين الكتاب الصالح أواصر صداقة متينة تمهد لهم طريق السعادة العقلية . . .

ودار المعارف للطباعة والنشر بمصر يسرها أن تعلن لجميع حضرات الأساتذة المربين وأولياء أمور الطلبة أنها خصصت بهذا الميدان الحيوى جزءاً كبيراً من نشاطها فأصدرت مجموعات أنيقة مختلفة لمطالعات الأطفال والشباب توافر فيها حسن الاختيار وجمال الإخراج واعتدال الثمن . . .

روضة الطفل

- ١ أرنبو والكنز
- ٢ كنت المدهش
- ٣ عيد ميلاد فلة
- ٤ فر فرو الحجر
- ٥ ذيل الفأر
- ٦ البطبة السوداء



أول مجموعة من نوعها
باللغة العربية يجمع
الطفل فيها قصصاً مفيدة
مزيّة بالصّور المبتكرة
ومطبوعة بالألوان الجميلة

المجموعة الجديدة بأن توضع بين يدي كل طفل
لتصعد به إلى الدرجة الأولى من سلم المعرفة
في حبّ من المتعة والتسلية.....
تصدرها دار المعارف بمصر

بمعاونة السيدة أمينة السعيد والدكتور يوسف مراد والأستاذ سيد قطب



أولاد

- ١ عمرون شا
- ٢ مملكة السحر
- ٣ كريالدين البغدادى
- ٤ آلة الزمان

قصص حية رشيقة تغذي روح الطالب
وتجولوه في جميع مراحل التَّمَوُّ
عناصر المنفعة والثقافة وسمو النفس

المجموعة التي تجلب الكتاب الصالح إلى الطالب
فيقبل عليه صغيراً ويتعلق به كبيراً
ويكون له نعم الزاد في سفرة الحياة

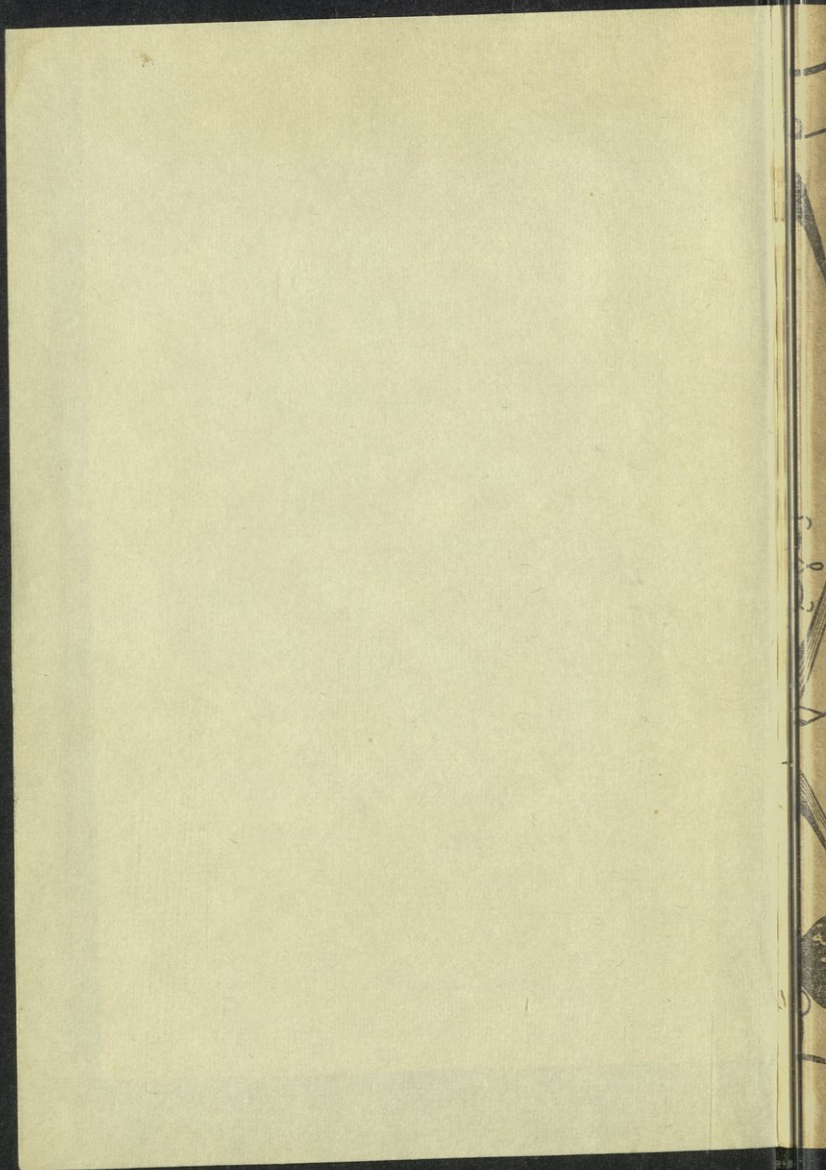


تصدرها

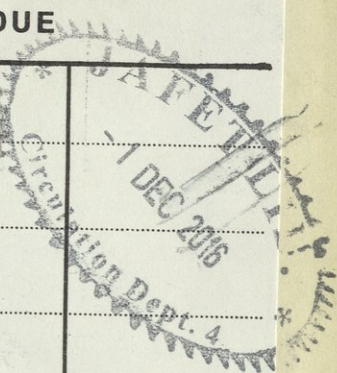
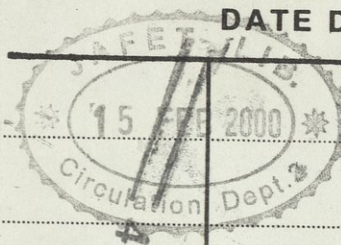
دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك





DATE DUE

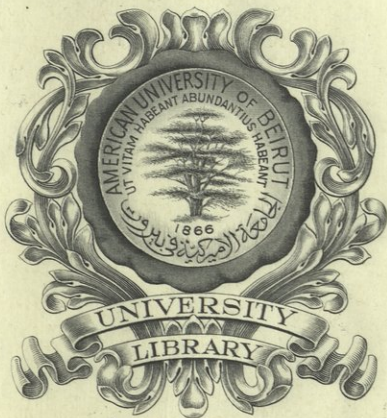


حسين، طه
رحلة الربيع
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01047973

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



892.73

H23924rA